على الطريق إلى يسوع المسيح

جوزيف راتسنجر (البابا بندكتس السادس عشر)



ترجمة : طلال عيسى غزالة

منشورات دار " نجم المشرق " (57)

بغداد 2019

على الطريق إلى يسوع المسيح

جوزيف راتسنجر

(البابا بندكتس السادس عشر)

ترجمة

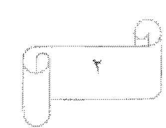
طلال عيسى غزالة

منشورات دار "نجم المشرق" (٥٧)

بغداد ٢٠١٩

دعوتني وصراخُك مزّق طَرَشي
أشرقتَ وبهاؤك مزّق عماي
نشرتَ عطرك فاستنشقتُهُ وتقتُ إليك
ذقتُ وعطشتُ وجعتُ إليك
لمستَني فأشعلتَ رغبتي لسلامك
(القديس اوغسطين)

أهدي هذا الكتاب إلى من علمني وساعدني وشجعني دائمًا لخدمة الكنيسة، إلى العلاّمة الأب يوسف حبّي مع محبتي



مقدمة المترجم*

قرأتُ كتاب "**على الطريق إلى يسوع المسيح**" للبابا بندكتس السادس عشر (جوزيف راتسنجر) وتعلّقت به كثيرًا، وكانت بداية رحلتي في نقله إلى العربية لإتاحة فرصة قراءته للمؤمنين المتكلمين بالعربية لما يتضمنه من معنى عميق وغنى روحي يجده القارئ كلما توغل في عمق النصوص وسط الطريق إلى لقاء الرب يسوع المسيح.

بعد تأمل طويل وجدتُ نفسي مستعدًا للمغامرة، وكأن الأبواب والمنافذ فُتحت أمامي، وبدأت خطوتي الأولى عام ٢٠١٦. مشيتُ بخطواتٍ بطيئة لكنها مريحة وهادئة لروحي وقلبي لأكتشف خصوصية الرسالة وأصيغ المعاني الروحية بواقعية وأمانة.

الطريق إلى لقاء الرب يسوع المسيح مغامرة لا تخلو من المصاعب، وكل واحد مدعو إلى هذا الطريق لكن بعد أن يتخلّى عن معاييره الأولية ويترك المجال لذاته أن تكتشف كل شيء، ثم يقرر ما يشاء عن قناعة وإيمان ووعي وحب. خبرة الإيمان تختلف عن أية خبرة معرفة أخرى، فهي ليست نظرية بل خبرة لقاء واقعي وحقيقي غير قابل للوصف، لأن حضور الله العميق فينا جمالٌ نلمسه ونتذوقه ونتنفس منه حياة الروح القدس.

شكري وتقديري لكل من دعمني لإكمال هذا الكتاب وأخصّ بالذكر الأب الفاضل منصور المخلّصي لاهتمامه الكبير في نشر الكتب والثقافة والتعليم الأصيل وغرس الفرح العظيم لكنيستنا العريقة. فليباركه الربّ دائمًا. كما أشكر الأب الفاضل ألبير هشام لمراجعته وتدقيقه وملاحظاته القيمة، لولاه لما خرج هذا الكتاب إلى النور.

---

* طلال عيسى غزالة: مواليد ١٩٥٧ – بغداد، خريج معهد التثقيف المسيحي. يقوم بخدمات ونشاطات عديدة في الكنيسة وترجم كتب عديدة من الانكليزية إلى العربية، منها: "عودة الابن الضال"، هنري نوين ٢٠١٦ و"اشتياق القلب".

مقدمة

في خضم الأزمات والمشاكل التي تعصف عالمنا المسيحي في مناطق عديدة من العالم، تبقى شخصية يسوع الناصري حاضرة بقوّة ومؤثرة، تجذب الناس حتّى من خارج العالم المسيحي. فالإسلام يعترفون به كنبي من الأنبياء، وفي الهند كثيرٌ من الناس يعلّقون صوره في بيوتهم ليتباركون بها، كما حرّكت خطبة المسيح على الجبل مشاعر وفكر الزعيم غاندي وتأثر بها بعمق، فأصبح يسوع المسيح للكثيرين هناك من غير المسيحيين رسولَ المحبة الذي يشرق من خلاله نورَ الله وخيراته على العالم.

حكايتنا لها علاقة بقصة المرأة النازفة التي تذكرها الأناجيل الإزائية، فقد شُفيَت تمامًا من مرضها بعد أن لمست رداء يسوع المسيح من الخلف. يبدو أن هذا الحدث يتكرر اليوم بطرق وأشكال مختلفة، لكن بنفس المعنى "**معرفة عن بعد**"!، وفي الوقت ذاته، يثير حضور شخصية يسوع بهذه الطريقة، وفي داخل المسيحية نفسها، القلقَ فنتساءل: هل بدأت الكرستولوجيا (لاهوت المسيح) تفقد معناها؟!

بدأت المشكلة عندما حاولنا إعادة اكتشاف شخصية يسوع الإنسان من وراء زخارف العقائد، فعدنا إلى بساطة الإنجيل دون أن نقلل من شأن ومكانة يسوع؛ إذ ليس هو مجرّد فاعل خير أو رجل سلام فقط، بل فتح أفاقًا جديدة وأجاب عن الأسئلة الجوهرية التي تواجه أعماق روح كل إنسان، فأصبح من الضروري أن نختار طريق الحبّ والحياة. لنجد المواساة والعزاء لئلا نقع في شباك العالم المعاصر ونتبنى مثله نظرة أحادية منغلقة على ذاتها. نجد اليوم، حتّى بين المؤمنين أنفسهم، على نطاق واسع، صورة عن يسوع الذي لا يطلب شيئًا ولا يوبخ أحدًا ويقبل كل شيء، يؤيدنا ويجارينا مهما عملنا، على عكس الكنيسة تمامًا، المتسامحة كثيرًا والصارمة كثيرًا، ولا تزال تضع قواعد وقوانين وضوابط وتطلب منّا طاعة العمل بها.

لو كانت الكنيسة ترضي أذواق الناس كلها لكانت من اختراع البشر ولم تكن كنيسة الله، لذلك هي سرّ مقدس، راية مرفوعة تجمع كل الشعوب بالمسيح.

وجدَ ف. شلتز في بحثه الذي نشره مؤخرًا عن طقوس العبادة والصلاة الجديدة في الكنيسة اللوثرية، شيئًا مشابهًا لهذا الموقف، إذ توجد أزدواجية وتوجّه وميل لتمييع وتسطيح المسيحية:

أولاً: قلّ استخدام اسم المسيح، أو بالأحرى اختفى.
ثانيًا: هناك تحوّل في النبرة وتركيز على مسيح يغلب عليه طابع التضامن مع الجنس البشري، ليضحى مصلحًا اجتماعيًا أكثر من كونه الربّ القدير وذا منزلةٍ ملوكية.

كما تضاءل، بل تلاشى، حضور شخص يسوع بين غير المسيحيين المعاصرين حولنا، وتحوّلت شخصيته من الربّ (وهم يتجنبون هذه الكلمة)، إلى مجرّد فاعل خير ومحامي ومدافع عن حقوق الناس كلّها. يسوع الذي في الإنجيل مختلف تمامًا عن هذا الوصف، فله مطالب جريئة وقوية ولا وجود ليسوع يقبل كلّ شيء مهما كان، فهذا وهم وخيال وليس حقيقة يسوع الإنجيل، وربما لا تناسب هذه الصورة كثيرين منا! مع ذلك يكشف لنا يسوع سرّ الإنسان والله، يجيب على الأسئلة الجوهرية التي تمسّ أعماق الإنسان وسرّ وجوده، سواء شئنا أم أبينا. هو يريدنا أن نستمر في البحث عن الله الأزلي، الذي يروي جوع وعطش الإنسان إلى الأبد، علينا العودة إلى الينبوع الأصلي، إلى الطريق الحقيقي ليسوع المسيح.

إنّ التأملات التي أقدّمها في هذا الكتاب، جاءت عبر سلسلة من المقالات والمحاضرات التي تهدف إلى الاقتراب من شخص يسوع المسيح لاكتشاف أصله وكماله الإلهي. في الفصل الثامن وعنوانه "الكثلكة والتكثلك"، نوسّع السؤال عن المسيح ليشمل الكنيسة التي بدونها لا وجود ولا حضور حقيقي للمسيح في العالم.

أمّا الفصل التاسع الذي يختم الكتاب، فيتناول التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، لنبدأ تطبيقه جدّيًا في حياتنا حسب خارطة الطريق. مشكلة الإيمان بالمسيح اليوم تكمن في طريقة قراءة النصوص المقدسة بشكل حرفي وعلمي، تاريخي ومجرد! في حين أن قراءة الكتاب المقدس ترتبط أولاً بالسؤال عن شخص يسوع المسيح، هويته، أصله الإلهي. الليتورجيا،

الأسرار والطقوس كلها تدور حول حضور الرب يسوع المسيح معنا وبيننا وفينا اليوم، وليست مجرّد احتفال بحدث ماضي.

كما أن الخلافات والجدالات في اللاهوت الأدبي تدور حول ممارسة الطريق الصحيح والتطبيق السليم لتعاليم الإنجيل، وكيف تتحول إلى شركة حب وحياة مع الله والآخرين حولنا؟

أتمنى أن يضعنا هذا الكتاب المتواضع على الطريق إلى يسوع المسيح.

الكاردينال جوزيف راتسنجر

روما ٢٠٠٣ عيد القديس بونافنتشورا

الفصل الأول

وجه المسيح في النصوص المقدسة

"من رآني رأى الآب" (يو١٤: ٩)

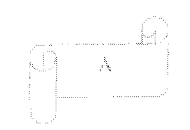
يروي لنا إنجيل يوحنا خطبة يسوع الوداعية بطريقة فريدة، تتأرجح بين الزمن والأبدية، بين الصلب وساعة الآلام وبين حضور يسوع الجديد المشرق بالقيامة، لأن آلام الربّ هي أساسُ مجده كذلك.

من جهة، هناك ظلمة وخيانة وترك يسوع معلّقًا على الصليب كالمجرمين، كما سبق وأخبر تلاميذَه. ومن جهة أخرى، هناك حضوره الممجد الذي يمحو كل ألم الموت. يخبر يسوع تلاميذه أن طريق الآلام لا يؤدي إلى الموت، بل إلى الحياة والولادة الجديدة والمجد الأتي، وعليهم أن يكونوا على الطريق لأكتساب هذه الولادة الجديدة. وفي هذا الصدد، نحن نشبه توما الرسول بارتيابه ومخاوفه، ومطلبه عملي واقعي عندما قال: "**يا ربّ، إنَّنا لا نَعرِفُ إلى أينَ تَذهَب، فكَيفَ نَعرِفُ الطَّريق؟**"، ويجيبه يسوع بعبارةٍ مشهورة أصبحت جوهر وأساس اللاهوت المسيحي: "**أَنا الطَّريقُ والحَقُّ والحَياة. لا يَمْضي أَحَدٌ إِلى الآبِ إِلاَّ بي**". هذا الكشف يزيد قلب توما قلقًا وحيرةً ويطرح طلبًا جديدًا، وهذه المرّة عن طريق فيلبس: "**يا ربّ، أَرِنا الآبَ وحَسْبُنا**"، فيجيبه يسوع من أعماق ذاته الإلهية، ومن عمق إيمان الكنيسة بالمسيح، بقوله: "**مَن رآني رأى الآب**" (يوحنا ١٤: ٢-٩).

وجه الله: هناك شوق باطني عميق لرؤية وجه الله، وهو متجذر في العهد القديم واتّخذ صيغة البحث عن وجه يهوه، ولهذا يتبع التلاميذ يسوع في العهد الجديد ليقودهم نحو هذا الهدف! لذلك يتعجب فيلبس من إجابة يسوع ولا يتوقعها أبدًا: نعم نستطيع أن نرى وجه الله من خلال وجه المسيح يسوع، وهذا هو الكشف الجديد والجريء في الإنجيل. هناك بشرى سارة، تطور كبير، ونظرة عميقة للإيمان.

يبيّن هذا الجواب بشكل جلّي أن المسيحية هي ديانة الحضور الإلهي، وتحقيق الوعد، ومن هنا يظهر السؤال الجديد الذي يتطلب الموقف الجوهري لعيش الحياة المسيحية، وما يعنيه يسوع بكلامه في هذا المقطع. والسؤال الثاني الذي يمكن أن تطرحه الآن الجماعة المسيحية التي جاءت بعد الرسل: كيف يمكن رؤية المسيح والله الآب في الوقت ذاته؟! يطرح إنجيل يوحنا السؤال نفسه، ففي أحد السعانين عندما يدخل يسوع إلى أورشليم، جاء بعض اليونانيين من صيدا الجليل إلى اورشليم لعيد الفصح، وطلبوا من فيلبس الذي يتوق هو أيضًا لرؤية وجه الآب، وسأل يسوع في العلية السؤال نفسه، قائلين له: "**يا سَيِّد، نُريدُ أَن نَرى يسوع**" (يو ١٢:٢٠-٢١). طلبُهم يمثّل طلب العالم الهيليني الوثني، وهو أيضًا طلبنا نحن المؤمنين بالربّ يسوع في كل زمان ومكان. يقول النص إن فيلبس واندراوس أخبروا يسوع لكنه أجاب بغموض كعادة الإنجيل الرابع، الذي يطرح أسئلة جوهرية تمس أعماق ذات الإنسان، وقال: "**أَتَتِ السَّاعَةُ الَّتي فيها يُمَجَّدُ ابنُ الإنسان**"، ويعطي معنىً جديدًا للحياة ويقول: "**إنَّ حَبَّةَ الحِنطَةِ الَّتي تَقَعُ في الأَرض إن لَم تَمُتْ تَبقَ وَحدَها. وإذا ماتَت، أَخرَجَت ثَمَرًا كثيرًا**" (يو ١٢:٢٤). يظهر المجد من خلال الألم "التمر الكثير" وهذا يعني الانفتاح وقبول الآخر وكنيسة الأمم الوثنية. نعم، نراه بعيون الإيمان لأن يسوع يتجاوز الحدث التاريخي وكل العقد وعوائق الزمان والمكان، ويتوجه للمستقبل فجاء إلى العالم كله، سيراه الجميع في الحاضر في أقاصي الأرض وليس فقط اليونانيون الذين يذكرهم الإنجيل.

خليقة جديدة: يقول القديس بولس في ٢ كو ٥:١٦ "**فَنَحنُ لا نَعرِفُ أَحَدًا بَعدَ اليَومِ حسب الجسد. فإِذا كُنَّا قد عَرَفْنا المسيحَ يَومًا حسب الجسد، فنحن لا نَعرِفُه الآنَ هذِه المَعرِفَة. فإِذا كانَ أَحَدٌ في المسيح، فإِنَّه خَلْيقةٌ جَديدة. قد زال القَديم وها هو الجَديد**". يصف يسوع مجيئه من منظور القيامة بقوة الروح القدس، فهو ذاهب إلى الآب، وهذه رؤية إيمانية جديدة تُرى بعين القلب والروح. لهذا السبب ليس درب الصليب حدثًا من الماضي بل المكان الوحيد الذي يمكن أن نكتشف ونرى يسوع من خلاله، حياة الإنسان تثمر عندما يتبع التلميذُ الربّ ويكون على الطريق فيقول: "**الحق الحق أقول لكم: إن كانت حبة الحنطة لا تقع في الأرض وتموت، تبقى وحدها وإذا ماتت أخرجت حبًا كثيرًا ومن أحب نفسه خسرها،**



ومن أنكر نفسه في هذا العالم حفظها للحياة الأبدية، ومن أراد أن يخدمني فليتبعني: (التلمذة)، **وحيث أكون أنا يكون خادمي، ومن خدمني أكرمه الآب**" (يوحنا ١٢: ٢٥-٢٦).

الفرح الحقيقي: من يمشي خلف المعلم يرى جمال الحياة الحقيقية، تكون له البركة والنعمة والمجد، فمن التلمذة الحقيقية ينبع فرح كبير ومعنى وجودنا وقبولنا للآخرين، لأن حبّ الآخر يضفي قيمة ومعنى عظيمًا، وعندما نشترك في درب الصليب وطريق آلامه، نرى بوضوح محبة الله الآب من خلال يسوع المسيح. من هذه الرؤية يقتبس القديس يوحنا الإنجيلي كلمات النبي زكريا الذي يقول: "**سَيَنظُرُونَ إلى الذي طَعَنوه**" (يو١٩ :٣٧، زكريا ١٢: ١٠). رؤية وجه الله من خلال الرب يسوع هو فعلٌ وجودي، ونضيف في هذا الصدد أن ذكر **وجه المسيح** لم يأتِ فقط في النصوص اليوحناوية، بل هو متجذر ومتصل ضمنيًا بفكرة أساسية في العهد القديم، وهي **رؤية وجه الله** من خلال عون حقيقي للآخر المتروك والمتألم، وهذا هو أساس التقوى والإيمان في نصوص كثيرة وإن بمصطلحات مختلفة. هناك علاقة وثيقة واستمرارية بين إنجيل يوحنا والعهد القديم، لكونه يسير في نفس الطريق **لرؤية وجه الله.**

تحقيق المواعيد الإلهية: يقول الرسول بولس في (٢كو ٤: ٦): "**والله الذي قال لِيَشْرق من الظلمة النور هو الذي أضاء نوره في قلوبنا لتشرق معرفة مجد الله ذلك المجد الذي على وَجْهِ يسوع المسيح**". يقتبس يوحنا وبولس تقوى متجذرة في العهد القديم من عبادات بني إسرائيل، ويضعان النقاط على الحروف من أجل توضيح كل غموض حول تحقيق المواعيد الإلهية. لذلك إذا أردنا أن نفهم لاهوت العهد الجديد لوجه المسيح بكل عمقه، علينا العودة إلى الينابيع وجذور التوراة لأنها أساس كل شيء.

١/١ البحث عن وجه الله في العهد القديم

كلمة (panim) وتعني وجه، تتكرر ٤٠٠ مرة في العهد القديم، نِصفُها يصفُ الإنسان أو الملائكة مثل الكاروبيم والساروفيم، وربع آخر أي حوالي ١٠٠ مرة تصف وجه الله نفسه (يهوه). تستخدم كلمة panim بكثرة للتأكيد على أهمية العبارة، مثل وجه الرب، والنور

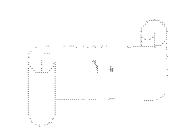
المشرق من وجه يهوه. يا ترى كيف يمكن أن نفهم هذا الكلام في ديانة تتحفظ على أي شكل من أشكال الصور لإله اسرائيل، سواء للتقوى أو العبادة؟!

من يلتمس وجه يهوه، يعرف مسبقًا أن لا صورة له ولا تمثال نتوجّه إليه للصلاة، كما في سائر الديانات الوثنية السائدة آنذاك. كما أن رؤية وجه الله ليس تعبيرًا مجازيًا، بل هناك خبرة روحية عميقة تحصل، تعبّر عن الشركة مع الربّ، يتأمل فيها المؤمن كلمة الله في الصلاة وتمكنه من رؤية النور المنبعث من الوجه كنجمة مضيئة في الظلام. هو يرى النور في التأمل الطويل والسجود والخشوع وعندما نشعر به يطلب منّا أن نشهد له "**اذهبي إلى أخوتي**".

هذا التعبير مقتبس من نصوص الديانات الوثنية القديمة للإله النجم (astral deities)، رغم أن هذه الفرضية لا تتطابق مع رأي كبار علماء العهد القديم عمومًا، وهذا يدل ويثبت الخطوة الكبيرة التي تبنتها التوراة في رفض أي شكل من أشكال الصور، واستبعاد كل أشكال الآلهة من أجل حفظ وجه الرب الحقيقي الذي لا يمكن أن تحتويه صورة أو تمثال، مع ذلك يبقى له وجه يرَى ويُرَى بعين القلب والإيمان.

الله روح: هناك انقلاب جذري عميق وناضج، وتحوّل من الآلهة المادية الظاهرية إلى توجه روحي داخلي خفي عن العيون الجسدية. هذا الإله هو شخص، له وجه بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، لأن الوجه يعبر عن المشاعر والأحاسيس الإنسانية، وله ردود أفعال عندما يتقابل وجهًا لوجه مع الآخرين في علاقة تفاعل متبادل وعطاء ومحبة حقيقية.

سايمون يافور: يعرّف في مقالةٍ له كلمة panim على أنها علاقة بين الله والإنسان، حيث يتعرف الواحد على الآخر عن قرب (إزالة الحواجز) حين يتقابل الوجهان. إضافة إلى ذلك، هذا الإله له اسم (يهوه)، يستطيع المؤمن أن يناديه به ويشكو إليه حاله، يخاطبه ويستمع إليه ويقيم علاقة معه. الآخر يعطيني قيمة ومعنى وسببًا للوجود، يجعلني فريدًا ووحيدًا في العالم من خلال الحب المتبادل. في الغربة نشعر بتفاهة الحياة، وبالفراغ والعبثية،



لأن لا أحد يهتم بنا (الابن الضال)، وهي حياة بعيدة عن الله، لذلك تقول الآية: "**أسماؤنا مكتوبة في راحة يديه**"، لا ينسانا بل يسمع طلباتنا وصلواتنا وشكوانا وشكرنا.

هذا التحول الكبير إلى التركيز على الشخص والجوهر الباطني بدلاً من المظهر الخارجي وشكله وصورته، يدلّ على الرؤية العميقة التي ترى وتسمع الآخر وتتكلم معه، وهي رؤية داخلية أبعد من الماديات السطحية الزائلة، لأن عين القلب ترى بصورةٍ أوضح وأنقى.

ترجمت كلمة (panim) إلى اليونانية (prosopon) وتعني الوجه، ولم تعد تستعمل في الفلسفة اليونانية كمفردة، بل أصبحت بعد ذلك (person)، وتعني الشخص أو الأقنوم، واستخدمت لتوضح عقيدة الثالوث الأقدس. وفي العبرية تستعمل (panim) للتعبير عن الربّ كشخص يهتم بخلائقه، يرى ويسمع كل شيء، يحب ويغضب، هو فوق كل شيء، شبه الإنسان في صورته ووجهه، خلقنا على شبهه ومثاله، من خلال الوجه نتعرف على الناس والله، ونتبادل الكلام والمشاعر، نحاوره، يسمعنا ونسمعه كل أيام حياتنا.

يقول مزمور (١٠٥:٣): "**هللوا لاسمِه القُدُوس واطلبوه فتفرَحْ قلوبُكم، التَمِسوا الرَّبَّ وعزته، واطلُبوا وَجهَه كُلَّ حين**"، أما مزمور ٢٤ فيتحدث عن متطلبات من يحقّ له أن يصعد الى جبل الرب، ويقف في بيته المقدس، فيقول: "**النَّقِيُّ اليدين والطَّاهِرُ القَلْبِ**"، ثم في آية ٦: "**هكذا يكون مَن يَطلبُ الرب مَن يَلتَمِس وَجهَكَ يا إِلهَ يَعْقوب**". هذان المزموران يُقرأن أثناء طقس دخول تابوت العهد إلى الهيكل كل سنة، فيرون وجه يهوه ما داموا يسيرون في طريقه وحسب وصاياه. كذلك يذهب المقطع التالي أبعد من المتطلبات الطقسية للمؤمنين، يبين هوشع (١٤:٥-١٥) ذلك بوضوح فيقول: **سأنقضّ على بيت أفرايم كالأسد وعلى بيت يهوذا كالشبل، فأمزقهم وأمضي، وأخطفهم ولا منقذ. أمضي راجعا الى موضعي، لعلهم يعترفون بخطيئتهم، ويلتمسون وجهي وفي ضيقهم يبكرون إليَ**". إذًا الاستقامة والطهارة وحدها تجعل المؤمن في طريق الربّ.

كان سيمون يافور على حق حين قال: لكي ترى وجه الرب يهوه، عليك إتباع الوصايا لأنها شاملة وملزمة دائمًا، كما يعبر عنها بشكل جميل في المزمور ١٧ الذي هو صلاة مؤمن لا تحيد رجله عن الطريق في أقسى الظروف والتجارب من أعدائه فيقول: "**تمسكت بالسير في دروبك فلا تحيد عنها خطواتي**". هو يقسم الحياة إلى طريقين، وعلينا أن نختار أحدهما لأن الاشرار نصيبهم في هذه الدنيا، فنراه يقول "**منحتهم نصيبهم في الحياة وملأت بطونهم من خيرك، فيشبعون مع بنيهم، ويتركون ما يفضل عنهم لبني البنين. وأنا في برائتي أعاين وجهك واشبع في يقظتي من حضورك**".

يرى المزمر في صلاته إلى الرب مصيره بشكل مختلف، فيتأكد من خلال طريق الاستقامة والمعاناة والصبر أنه يرى وجه الرب ويسير على الطريق الصحيح. المؤمن ممتلئ من بركات الرب ونعمه، ثابت في طريقه، بينما يملأ الآخرون بطونهم من خيرات الدنيا المادية. متطلبات طقوس العبادة القديمة في التوراة عملية مركزة تحمل معاني جوهرية عميقة وكبيرة تقود الإنسان نحو الكمال، لأنه في الأستقامة يصبح في صورة الله، وتأخذ معناها من كلمته التي تعلّم وتؤدب، حتى يضيء نور الرب في نفس المؤمن، تتقدس روحه وجسده، ولأجله يقول: إذا استيقظتُ أشبع من بهاء طلعتك. يدعو الربّ الإنسان إلى اليقظة من نوم العالم المادي إلى الفرح السماوي الحقيقي والسلام الإلهي، الذي لا يعرفه العالم البعيد عن الله، لأنه يعتبر الامتلاء والشبع المادي هو الهدف، والسعادة في المظهر الخارجي والتملك، فيبقى يدور في حلقة مفرغة وحياة زائفة، يجرب كل شيء يُعرض عليه، فتراه كأنه نائم، مسحور خيالي، لا يحيا الواقع، ولا يتحمل المسؤولية ولا يعيش الاستقامة ليحفظ حياته. وهذا ما يدعوه العهد الجديد والكنيسة بالإيمان.

"**استيقظ**" في مز١٧ "**الاستقامة**" في مز ٢٤، هما كلمتان محوريتان للقاء الربّ في الحياة، لأنهما الحياة بحسب مشيئته، ويعني الانفتاح على الرب قبول الحياة، حفظها وتطويرها، تكامل الوعي والإرادة، لأن حياتنا الأرضية أساس الأواخرية، أي الحياة الجديدة لكل إنسان وعيش الملكوت من خلال رؤية تتجاوز الماديات والعبور إلى المستقبل.

يُقرأ مز ٢٤ من خلال طقس جماعي في الهيكل، وفيه رجاء وأمل بالمستقبل القادم، بينما مز ١٧ هو صلاة فردية وليست طقسية لأنه يقول: "**أما أنا** (بالمفرد) **بالبر أرى وجهك**"، في حين نرى في العهد القديم التركيز في نصوص متشابهة على مراسيم طقسية مشتركة كثيرة (خروج ٢٣:١٤-١٩، ٣٤:١٨-٢٦، تثنية ١٦: ١-١٧)، إنها التقويم الطقسي لشعب اسرائيل، وفي هذه الأسفار نصوص متشابهة تركز على حضور الذكور ثلاث مرات في السنة، لتقديم الشكر والطاعة للربّ حسب الشريعة. فرؤية الرب تتمّ من خلال كلمته، أسراره وأخوته البشر!

يطلب تث٣١:١١ وبحسب الشريعة حضور الجميع كل سبع سنوات في عيد المظال، لقراءة النصوص أمام الربّ، ولأجل التعليم والعمل بمتطلبات الشريعة طول الأيام التي يعيشونها على الأرض، التي "**أنتم عابرون نهر الأردن لترثوها**"، هكذا يظهر وجه الرب من خلال المشاركة، اللقاء معه وسماع كلمته في مراسيم وطقوس العبادة.

رجاء وخلاص: تصبح هذه الرؤية واضحة جدًا عندما نتأمل معنى التعبير، النور المنبعث من وجه الله الذي يخفي ملامحه عنّا، لأنه في مفهوم الإنسان التوراتي، النور والحياة ملتصقان، يرتبطان معًا، لأن النور مصدر الحياة والنبع الذي نرتوي منه كما يذكر المزمر في صلاته فيقول (مز٤:٦): "**أشرق علينا يا رب بنور وجهك، غرست في قلبي فرحًا أعظم من فرح من امتلاء بيوتهم وأجرانهم بالحنطة، والخمر الجديدة، بسلام اضطجع وأنام، لأنك أنت وحدك يا رب تنعم عليّ بالطمأنينة والسلام**". هكذا يعبّر المؤمن عن رجائه بالخلاص والسلام في حياته مع الربّ. في مقطع آخر يعبّر المؤمن في صلاته بجمال رائع فيقول ثلاث مرات في مزمور ٨٠:٤: "**أرجعنا إليك يا الله، وأنر بوجهك علينا، فنخلص**"، ويطلب مز ٩٠:٨ إنارة قلبه أيضًا لكي يكتشف خطيئته فيتوب ويخلص "**تظهر آثامنا أمامك وخفايانا في نور وجهك**".

الحاجة إلى واحد: العكس صحيح أيضًا، فسكوت الربّ وغيابه عن المؤمن يعني الموت والهلاك، لأنه لا يشعر بحضوره في حياته، لذلك يستمر في الصلاة ليلتمس نور وجهه، ويتساءل عن سبب صمته وغيابه، وسبب عدم قدرته الذاتية في التعرّف إليه، فبدونه لا

خلاص ولا حياة. صمت الله عقوبة للخاطئ بحد ذاتها، بالرغم من كونه يشعر ببعض الأمان المزيف لعدم وجود الله، كانت هناك فترات في التاريخ اختبر الناس صمت الله، ألا يجب علينا أن نشعر بالخطر عندما لا نكتشف حضوره في حياتنا؟ أليست علامة على فشل العالم المادي في إشباع جوع وعطش الإنسان إلى الحب الحقيقي الذي يعطيه معنى وسبب وجوده؟ أليس البحث عن وجه الرب أهم من كل شيء آخر مادي؟! إنما الحاجة إلى واحد!

المسيح وموسى: في ختام هذه الملاحظات، يصبح البحث عن وجه الله بحثًا عن وجه المسيح يسوع، إذ أن هناك استمرارية للفكرة في العهدين القديم والجديد، لذلك يقول الرسول بولس في (٢كو٣: ٤ و٤: ٦) مترجمًا الفكرة على ضوء القيامة: "**هذه ثقة لنا بالمسيح عند الله، لا لأننا قادرون أن ندعي شيئا لأنفسنا، فقدرتنا من الله فهو الذي جعلنا قادرين على خدمة العهد الجديد، عهد الروح لا عهد الحرف، لأن الحرف يميت والروح يحي**". هذا النص يثبت مدى قوة التصاق العهدين معًا روحيًا، وهذا هو التجديد في إيمان الكنيسة، عندما يقول بولس أيضًا: "**الله الذي قال (ليشرق من الظلمة النور)، هو الذي اضاء نوره في قلوبنا لتشرق معرفة مجد الله، ذلك المجد الذي على وجه يسوع المسيح**". في هذين المقطعين تثبت مدى الترابط والوحدة الروحية للعهدين في الرسالة المسيحية.

وجهًا لوجه: يرجو موسى الله أن يغفر لشعب اسرائيل بعد سقوطهم في عبادة العجل الذهبي، فيقول للرب في (خر ٣٢: ٣٢): "**يا ربّ لقد اقترف هذا الشعب خطيئة عظيمة... والآن إن شئت اغفر لهم، وإلا فامحني من كتابك الذي كتبت**"، موسى يكلم الربّ بإلحاح، وكأنه صديق يكلّم صديقه. ثم في مقطعين آخرين نجد في خر٣٣: ١١، فيطلب منه علامة فيقول له أرني مجدك "**وكان الرب يكلّم موسى وجهًا لوجه كما يكلّم الإنسان صاحبه**"، فيطلب الرب منه أن يدخل في شقّ داخل الصخرة، وحين يعبر الربّ يحجب وجهه بيده، فيرى موسى ظهر الرب ويبقى وجهه محجوبًا عنه، لأن **من يراه يموت**. يا ترى كيف نفهم هذا التناقض بين النصين: في البداية تقابل الوجهين، ثم لا يمكن أن يراه أحد لأنه سوف يموت؟! هنا نحتاج إلى قراءة مسيحية عميقة لفهم هذا المقطع، وسفر الأعمال يشرح ذلك على لسان اسطيفانوس فيقول: "**موسى هو الذي قال: سيقيم لكم الربّ إلهكم نبيًا من بينكم،**

من اخوتكم، بني قومكم مثلي، فاسمعوا له" (اع٧:٣٧)، ويقتبس ذلك من سفر (تث ١٨:١٥)، و(تث٣٤:١٠): **"ولم يقم من بعد نبي في اسرائيل كموسى، الذي عرفه الربّ وجهًا لوجه)**. يريد اسطيفانوس القول إن وعد الله تحقق في يسوع المسيح، إذ تصرف مثل موسى في خطبة الجبل، لكن الربّ لم يقبل طلب موسى وعاقب الخطاة، بينما يسوع نفسه صار خطيئة من أجل خلاصنا "**المسيح حررنا من لعنة الشريعة بأن صار لعنة من أجلنا**" (غلاطية ٣:١٣).

كذلك (١يو٢:١): "**صار كفارة لخطايانا، بل لخطايا العالم كله**". يسوع من الآن فصاعدًا صار ابنًا، هو وجه الله ومجده.

أنتم أحبائي: لم نعد عبيدًا، بل أصدقاء وأحباء، يقول يوحنا (١٥:١٥): "**أنتم أحبائي، لا أدعوكم عبيدًا بعد الآن، لأن العبد لا يعرف ما يعمل سيده، بل أدعوكم أحبائي، لأني أخبرتكم بكل ما سمعته من أبي**". بالرغم من أن موسى كلّم الرب وجهًا لوجه، لكن بالنسبة للقارئ المسيحي فهو يرمز إلى المسيح يسوع. أما عندما يحجب وجهه عن موسى ويرى ظهره فقط، فهذا لا ينطبق على المسيح بل يقصد التلاميذ ثم نحن المؤمنين به، بمعنى أن نسير خلف المعلم كتلاميذ نتبعه، لنكون في الطريق الصحيح إليه، أما المقطع الأول فيرمز إلى سرّ المسيح مع الله الآب، إنه نص عميق وغني بتفاصيل عميقة وكثيرة بحسب رؤية وتفسير آباء الكنيسة للفصل ٣٣ من سفر الخروج. عندما نقف في حضرة الله، يغطي عيوننا بيديه ونراه من الخلف، ويشرح القديس غريغوريوس النصيصي هذا المقطع بقوله: "**رؤية وجه الله تعني السير خلف المعلم من خلال مرافقة المسيح نحو الله الحي، بواسطة السر الفصحي لآلامه وموته وقيامته، وصعوده إلى السماء، ليمثلنا في الأبدية، ويبين الطريق لنا من خلال علامات العيش الاخوي المشترك كل حياتنا، بمحبة الروح القدس، وشركة القديسين**".

٢/١ رؤية المسيح في حياتنا

تقودنا نصوص العهد القديم التي تتمركز حول وجه الله، عمليًا إلى العهد الجديد، والجديد ليس فيه الفكرة والوجه فقط، بل شخص يسوع المسيح الذي أعيدت من خلاله قراءة النصوص القديمة وطقوس العبادة، خصوصًا بعد تدمير الهيكل. فأصبح يسوع وجه الله المشرق الذي نبحث عنه. وهذا الإلهام يظهر من خلال أيقونات كثيرة مكتشفة في الدياميس، وكذلك الذخائر وكفن المسيح، وهذه كلها حسب التقليد المسيحي ليست من نتاج البشر، وعلى الرغم من ذلك لا يمكن أن تصبح هذه الأيقونات شيئًا ماديًا ملموسًا عن الربّ، كأنه شيء سهل وبسيط يمكن وضعه تحت اليد! القضية أصعب من ذلك، هي خبرة باطنية روحية عميقة، والمبادرة تبدأ منه، فهو يختارنا ويدعونا وينادينا بأسمائنا لكي نرافقه في رحلة الطريق، في رحلة روحية مستمرة بعيدًا عن كل شيء مادي، رحلتنا لن تكتمل في هذه الحياة الفانية.

إذا أردنا أن نوضح ذلك بلغة لاهوتية، نستطيع القول إن هذه الذخائر والأيقونات تقودنا إلى المستقبل، إلى الأواخرية، وتساعدنا لنكون على اتصال دائم معه في حركة مستمرة، عندما يتكامل عندنا الوعي والنضج والرؤية والإدراك لنرى كل شيء بمنظوره العميق والكبير.

الوجه المقدس: كانت هذه الأيقونات في القرن التاسع عشر تُستخدم لغرض التقوى وعبادة الوجه المقدس، ووصلت ذروتها مع القديسة ترازيا، التي سمّت نفسها ترازيا الطفل يسوع أو الوجه المقدس. دخل وجه الرب في واقع الحياة ولمس بؤس الإنسان، وكلا المصطلحين يرمزان إلى المحبة والعلاقة الروحية المتينة بينهما وبين العالم.

يُظهر وجه المسيح المتألم والمجروح محبة الله الآب وسرّه، وعلاقته مع الإنسان، وجهه الحقيقي. أخلى ذاته من اجلنا لنحيا الخلاص الإلهي. وبنا ، على ذلك يمكن أن نميّز ثلاث نقاط أساسية لالتماس وجه الرب المسيح والله الآب ،ن خلال ممارسة التقوى والعبادة وهي نقطة أساسية يركز عليها العهد الجديد:

١) **التلمذة:** السير في الطريق خلف المعلم طوال أيام حياتنا، وهذا يتحقق من خلال محبة القريب والفقير، المحتاج والمتروك، عمل الخير لهؤلاء الصغار المساكين، **"جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، عريانا فكسوتموني، مريضًا فزرتموني، سجينًا فأتيتموني"** (متى ٢٥:٣٥-٤٦).

وجه الربّ يسوع ووجه الله يظهران من خلال لقاء هؤلاء الناس، عندما نقترب منهم ونلمس جراحهم، نهتم ونتعرف على معاناتهم في الحياة.

٢) **القربان المقدس:** نتعرف على وجه الربّ أكثر من خلال سر الأفخارستيا، القربان المقدس، فيتحوّل صراع موسى على الجبل وطلب الشفاعة ضدّ الخطيئة المرتكبة، إلى وقوف الربّ يسوع نفسه على الجبل ليجعل من نفسه خطيئة لأجل خلاصنا، وصار حبّة حنطة تموت لتعطي ثمرًا كثيرًا، أخلى ذاته على الصليب، صار قربانًا وبيديه أعطانا خبز الحياة، فأصبح الخبز لقاءً مع المسيح الذي يهب نفسه وروحه لنا.

تعرّف تلميذا عماوس على يسوع من خلال كسر الخبز، القربان، وسقطت الغشاوة من العيون لكي نرى بوضوح كل شيء، نرى المصلوب والشوك في رأسه، والمطعون في جنبه، نرى المحتاج والمريض والمسكين، لهذا السبب تهتمّ الليتورجيا بتفاصيل طقس العبادة ودرب الآلام وحمل الصليب، ففيه يكمن اللقاء الحقيقي والشخصي مع المسيح، ويحدث الأهتداء داخل قلبنا وروحنا، هو الأيقونة الحية الحقيقية التي يقودنا منها إلى الآخرين حولنا.

٣) **الأواخرية – الأسكاتولوجيا:** ختامًا هناك العامل الثالث الخفي في تشابك علاقة النقطة الأولى والثانية بشكل قوي وواضح، لرؤيتنا لوجه المسيح، هو البعد الأواخري أيضًا. بمجرد النظر الى الأيقونات والتأمل فيها، نرتفع ونسمو إلى فوق، نلمس يقظة روحية تقودنا إلى المخلص الإلهي، من خلال ديناميكية التجسد، المسيح القائم من الموت، الآتي الذي ننتظره بشوق لنرتاح فيه ويرتاح فينا، من خلال سر الله الثالوث الأقدس، نراه في كل نشاطات المجتمع الخيرية، أعمال البر والمعروف، عندما نحنو بدفء وحب فنبعث في أعماق المتألم الراحة والفرح.

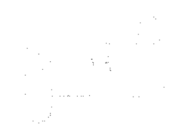
يغضّ اللاهوت السياسي النظر عن هذا الجانب أي تقديم مساعدة فورية، من أجل تحقيق هدف أكبر وانجاز المهمة الأساسية في بناء عالم أفضل. هذه النظرة جعلت من الإنسان أداة بيد السياسيين الحالمين في المثالية، وتبقى فكرة غير واقعية. فعمل الخير في وقته الآني، والعطاء بحب وإيمان راسخ في القلب والروح، يختلف تمامًا عن عمل الخير بدافع الشفقة المؤجلة، لأن القيمة العظيمة هي في المعنى، لأننا نلمس كل شيء في الحياة بدون انتباه أو بدافع عفوي، مادي أو غريزي، فهل له معنى وقيمة؟ وما معنى الإيمان بدون فعل واعي مسؤول! لأن ملكوت الله ليس نظامًا سياسيًا نصنعه، بل هو هبة مجانية من الله، لا يمكن فرضه بالقوة، هو علاقة، وقبل كل شيء رسالة حياة، رؤية عميقة، استنارة ووضوح، قبول، ثقة وحب، هي ليست نظرية مجردة، ولا علاقة مصالح ومنفعة شخصية، بل علاقة إيمان عميق يذكي ويجدد الوجود بما يمتلك من بركة ونعمة الرب يسوع المسيح. العطاء والتقدمة حتى البسيطة (كأس ماء بارد في وقته) هي الأساس الحقيقي لرحمة الله وحبنا وبنوتنا له (فلسا الأرملة). العطاء والمحبة والصلاة هي قوى الرجاء كلها مع بعضها تساهم في الاقتراب والشفاء برؤية نور وجه المسيح يسوع. الصراع هو من أجل الرجاء لتحقيق الملكوت الآتي.

عالم الأديان وعالم الإيمان: في الختام، علينا العودة إلى السؤال الآتي: حول العلاقة بين الإيمان والحياة حسب الانجيل، وبين تاريخ الديانة بشكل عام. من الواضح أن هناك ابتعادًا عن عبادة أي شكل من أشكال الصورة، بينما يستمر البحث عن وجه الله للتعرف عليه كشخص وإنسان، من هنا ينقسم تاريخ الديانة إلى: النظام الديني الذي لا يعرف الله كشخص، مثل: الأفلاطونية والبوذية والهندوسية، بل يعرفه كآلهة تستطيع أن تصلي لها طلبًا للمساعدة، أو حتى للانتقام من الأعداء. هذه الإلهة تتمثل من خلال صورة أو تمثال له وجه وشكل ظاهري محدد، لكنه بالتأكيد ليس الله، ولا ينتمي إلى عالم المطلق، هو بالتأكيد قوى محدودة وشيء آخر مختلف تمامًا عن إلهنا وربنا يسوع المسيح.

The (one): الحقيقة الأصلية والواقعية، التي هي (The one) كما يسميها أفلوطين، تتجاوز كل الآلهة والأسماء والديانات، لأن ليس له اسم أو وجه، ولا شكل وصورة، كما في

الديانات البوذية حيث التأمل في الفراغ واللاشيء. الغرض من هذه الحقيقة الشفاء الداخلي لكي يخطو خارج عالم الأسماء والأشكال والصور والوجوه، هي طفرة إلى أمام، من عالم الماديات والتقسيمات والتناقضات إلى عالم الواحد الخفي عن العيون والمتلاشي.

الجديد في المسيحية هو أن هذا الكائن المطلق نفسه هو شخص له وجه وأسم، خلاصه ليس في الضياع والإبهام في المجهول، بل هناك شفاء حقيقي، امتلاء وراحة وسكينة، فيض من الحب والعطاء. عندما ننظر إلى وجه الرب يسوع، حينها نستيقظ وننمو في القامة والحكمة والنعمة، وحين نكتشف وجه الله وتبقى متأملين في حضرته، نتعرف ونتذوق طعم ولذة الحياة الأبدية، بوعينا ويقظتنا من خلال النظر إلى الواحد المطعون في جنبه، الربّ يسوع المسيح.



الفصل الثاني

الصليب وجمال الإيمان

في كل عام، وخلال زمن الصوم، اكتشف مفارقة في صلاة المزامير لطقس مساء الاثنين من الأسبوع الثاني، حيث يرتّل المنشدون نفس المقطع من المزمور ٤٥، مرةً لفترة الصوم وأخرى للأسبوع المقدس. لكن المفارقة تكمن في اختلاف القصد والمعنى لنفس المقطع من المزمور في كلّ صلاة! يحتفل المزمور ٤٥ بزواج الملك، يمدح جماله وصفاته، فضائله وأعماله، ثم ينتقل إلى العروس ليمدح جمالها ويسبح الربّ. ويقول المقطع الثالث من المزمور: "**أنت أبهى من كل بني البشر، انسكبت النعمة على شفتيك، فباركك الله إلى الأبد**". تقرأ الكنيسة هذا المزمور لتؤكد على العلاقة بين العريس (المسيح) والعروس (الكنيسة). هنا أسلوب لاهوتي نبوي ولغة شعرية عميقة، تعبر عن الحبّ الإلهي، وبهاء وجمال الحقيقة الباطني. الله نفسه يجذبنا نحوه ويصيبنا بسهام حبه، به نتقدس ونمشي معه، وتقودنا عروسه الكنيسة، وتنادينا لنصغي إلى كلام الرب يسوع له المجد، لننال الخلاص والفرح الإلهي. هو لا يتكلم على جمال مادي بل على جمال روحي باطني ينعكس في الظاهر.

نجد المفارقة في يوم الاثنين من الأسبوع المقدس، حيث نردد نفس المقطع من المزمور لكن على ضوء قراءة سفر (اشعيا٥٣:٢) الذي يقول: "**نما كنبتة أمامه، وكعرق في أرض قاحلة، لا شكل له فننظر اليه، ولا بهاء ولا جمال فنشتهيه**". المفارقة هي كيف يتوافق هذا المقطع مع كلام المزمور الذي يقول" "**أنت أجمل من كل البشر...**"؟!.

يقدّم بيلاطس يسوع مهانًا ومضروبًا ومجروحًا، ولم يبق له صورة وشكلاً جميلاً، ويقول لهم: "هوذا الرجل" (Ecce homo) الذي يقول إنه ملك، في محاولة منه ليكسب عطف وشفقة الحشود الغاضبين على الرجل المضروب والمعذب والمشوه وجهه من جلاديه! نشر القديس أوغسطينوس كتابًا في شبابه عنوانه "في الجمال والانسجام" (De pulchro et apto)

ويتحدث فيه على عشقه وشغفه للجمال في الموسيقى والنحت والشعر، من خلال خبرة عميقة في التباين والاختلاف والتناقض. وفي موضوع المزمور، هو يعرف أن الفلسفة اليونانية ترفض جمالاً مكسورًا ومضروبًا كهذا، وبالتالي تستدعي السؤال عن معناه، فيقارن هو أيضًا بين الصوت الصادر من نفس البوق، من نفس الروح والنفخة في كلا الحالتين. عندما يردد الجوق المزمور نفسه، هو يعرف أنه ليس هناك أي تناقض في الموضوع رغم اختلاف الموقف، كلاهما منسجمان وجميلان ويلهمان السامعين قصد الآية من الكتاب المقدس. وصف لنا اوغسطينس بدقة روعة الجمال المضحي الحقيقي المطلق الذي يدعونا إلى عالم الأبدية السعيد.

عندما نقرا هذا المقطع من إشعيا، يتبادر إلى الذهن سؤال: هل المسيح جميل أم لا؟ هذا السؤال يهم آباء الكنيسة أيضًا، والمقصود هنا: هل الجمال أو القبح والبشاعة أي المظهر الخارجي، يقودنا حقًا إلى الجمال الحقيقي للحياة؟ مع ذلك الإيمان بالرب الذي غطته الدماء، مصلوبًا ومشوهًا من أجلنا، يذهب إلى النهاية، ويخلي ذاته من أجلنا فنعرف أن الجمال المضحي هو الحقيقي، **"هو الذي أحب خاصته الذين هم في العالم أحبهم منتهى الحب"** (يو١٣:١).

هذا النوع من الإيمان هو الجمال الحقيقي الواعي، الذي يتحمل كل شيء، يحمل الصليب والموت، لا يتهرب من الصعوبات ويقبل الآلام. تدرك الفلسفة اليونانية أن هناك علاقة بين الألم والجمال، وهذا واضح في فكر أفلاطون فيقول: **"عندما نتقابل مع الجمال، تتحرك المشاعر داخلنا، تصدمنا وتنتزع منا ذواتنا، تحملنا بعيدًا، ونكتشف ما فقدناه في زحمة الحياة. لقد فقد الإنسان كماله الذي له، والآن يسعى باستمرار الى شفائه الداخلي، لينال كماله الأصلي"**.

جعلته الذكريات والاشتياق يبحث، وانتزع الجمال منه قناعاته في الحياة ومفردات يومه، وجعلته يعاني من سهام الحب التي أصابته في أعماق ذاته، تجرح وجوده لكن تعطيه أجنحة ترفعه ليطير بها بعيدًا في الأعالي. يقول أرسطو في كتابه Symposium: **"العشاق لا يعرفون ماذا يريدون من بعضهم البعض، لأن الروح لكلاهما عطشى لشيء أسمى من**

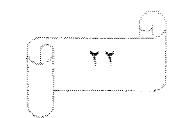
المتعة واللذة المادية، هم يتبادلون النظر الواحد إلى الآخر، مدهوشين، لأن الكلمات لا تستطيع أن تعبر عن هذا الشيء، هي تتحدث مع ذاتها، تؤشر برموز وألغاز فقط، تمتمات، صدى من المعاني، همسات تفيض من الأعماق تصل القلب بالقلب".

المعرفة تجلب الحب: في القرن الرابع عشر، صدر كتاب بعنوان "**الحياة مع المسيح**" للاهوتي البيزنطي **نيكولاس كاباسيلاز**، فيه إعادة لكلام **أفلاطون** حول اللهفة والحنين إلى الهدف النهائي الذي يبقى بلا أسم. تحوّل هذا الكلام الآن إلى الخبرة المسيحية. عندما يكون الشغف كبيرًا، والحب عظيمًا جدًا، يدفع الإنسان إلى تحقيق وإنجاز أشياء تفوق قدراته، وتتجاوز فكره وعقله، يضيف نيكولاس أيضًا: **"هو العريس والعروسة نفسهم من يصيب أحبائه بسهام حبهم، ويرسل شعاع الجمال إلى عيون الحبيبين وكيانهم، فتراهم مندهشين، صامتين، يتحدثون بالعيون والقلب والروح، هناك فرح وسلام داخلي، ممتلئ معنى، وغنى خالد يذكي الوجود، هي السماء والأبدية".**

صحيح أن الجمال يجرح بسهام الحب، لكنه يوقظ الإنسان ويدله إلى الطريق، الهدف النهائي، هذا ما يريد أن يقوله نيكولاس وأفلاطون في مؤلفاتهم. قبل ١٥٠٠عام، لم يبق للجمال الظاهري السطحي شيء، أو للصفاء والنقاء المجرّد مكان. الجمال الحقيقي هو المعرفة الباطنية العميقة التي تضرب الذات، تجمع وتوحد الوجود، تفجر الينبوع، تواجهنا بكل روعة وبهاء الحقيقة، في بحرٍ لا قرار له، يتجدد في كل لحظة من شركة حياتنا المقدسة بالرب يسوع له المجد.

يبقى نيكولاس يونانيًا في طرحه للموضوع، يضع المعرفة في البداية، فيقول: المعرفة تجلب الحب والولادة الجديدة، وتجعله مثمرًا ومعطاء. ويذهب أبعد من ذلك فيقول: المعرفة لها أحيانًا قدرة كبيرة، قوة مؤثرة والمفعول نفسه لخبرة ونشوة الحب. ويميز المعرفة في شكلين:

أولاً: معرفة عن طريق الدراسة والتعلم والإرشاد، ولكنها تبقى معرفة نظرية، ثانوية، ولن تنقل الإنسان إلى الواقع العملي الملموس بدون علاقة حب كبير متبصر ومستنير.



ثانيًا: معرفة عن طريق الخبرة الشخصية، من خلال الاتصال بالشيء نفسه مباشرةً، طالما لم نذق طعم الجوهر فلا نعرف أن نحب إلى المدى الذي يستحقه الحبيب، الهدف النهائي، الجوهر الكبير (فاقد الشيء لا يعطيه).

يقول مثل إنكليزي: (you are nothing until you find someone love you)

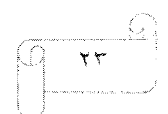
المعرفة الحقيقية هي الجرح، يصيبها سهم الجمال ويمس أعماق الذات والوجود، من خلال المسيح نفسه. هذه الخبرة ليست استنتاجًا فكريًا وعقليًا، بل شعورًا حسيًّا، معرفة اتصال بالشيء نفسه، دون أن نستبعد فائدة التأمل اللاهوتي والدراسات الروحية، إذ تبقى ضرورية، لكن الازدراء من الخبرة العملية العميقة سوف يفقر الموضوع ويجفف اللاهوت والإيمان.

يجب علينا، إعادة اكتشاف الشكل الجديد لهذه المعرفة، وهو طلب ملحّ وضروري الآن في الوقت الحاضر.

كانت هذه الرؤية نقطة الانطلاق للاهوتي **هانس بلشاصر**، الذي أبدع في بناء **لاهوت الجمال**، في كتابه (magnum opus)، إذ دخلت الكثير من أطروحاته في المناهج الدراسية، بالرغم من أنه كان مثيرًا للجدل بشكل واسع، ولم يقبله المفكرون بشكل كبير، وكان أيضًا مشكلة بالنسبة للكهنة واللاهوتيين، لأنه يتطلب منهم إجراء ترتيبات وإعداد الناس لاستيعاب وفهم رؤيته اللاهوتية لجمال الإيمان.

لم نعد اليوم نهتم بجدالات لاهوتيي القرون الوسطى لأنها بلا فائدة، كلّهم كانوا أذكياء بامتياز بما فيه الكفاية، يمكن أن يديروا بدهائهم المسارات بأي اتجاه يرغبون فيه! فبمن سنصدق إذًا؟

المواجهة مع الجمال تصيب الروح بسهم الحب، الجرح يجعلها تصحو، ترى بوضوح أبعد من المحدود، تصبح لديها خبرة عملية، تملك معيارًا تستطيع به أن تزن وتقيم تلك الجدالات بشكل صحيح. بالنسبة لي، لا أستطيع أن أنسى ما اختبرته عند حضوري حفلاً موسيقيًا في ميونخ، لسيمفونية باخ، قدمها ليونارد برنستاين، بعد الموت المفاجئ لكارل رختر. كنتُ



جالسًا بجانب أسقف لوثري (هانسلمان)، وفي النهاية، بعد تلاشي صدى النغمات الرائعة في الأثير للمقطع الأخير من سيمفونية توماس كانتور، نظر كل واحد منّا إلى الآخر بدهشة وعفوية، وقلنا لو أي واحد سمع هذا، لعرف فورًا أن هذا هو التعبير عن الإيمان الحقيقي. لقد لمسنا قوة فائقة الطبيعة، حاضرة بوضوح من خلال أنغام الموسيقى التي سمعها كل الحاضرين بتركيز، وصمت وانتباه شديد، جمال لمسنا حضوره ويلمس شغاف القلب، لم يكن خيالاً أو انبهارًا في الفراغ، إنما ولادة من قوة الحقيقة. استطاع المؤلف الملهم أن يجسدها بشكل رائع ليس له مثيل، إنه نفس الإحساس ينتابني عندما أتأمل أيقونة الثالوث الأقدس لروبلف، وكل الفن المسيحي المقدس في الفترة القوطية.

هكذا تظهر خبرة نيكولاس كاباسيلز في وصفه للجمال الحقيقي، إذ تنبع من خبرة داخلية عميقة، وتظهر بشكل خارجي ملموس قابل للاتصال معه.

بول ايفدوكيموف، لاهوتي روسي، يتكلم على تأثير الأيقونة في النفس الإنسانية قائلاً: الأيقونة لا تعبّر عن المعنى المجرد والبسيط الذي يظهر أمام الناظر، بل يتطلب خبرة الصلاة والتأمل، الدخول في عمق الأيقونة، لكي تقرأ السر المختفي وراء السطور وضربات الفرشاة وطيات الألوان، ليكتشف المعنى الكبير والهدف النهائي العميق الذي ترمز له الأيقونة ليتحول الى واقع ملموس. لأن الفنان يرى ما لا يمكن للحواس أن تراه. يرى روعة وجمال مجد الله. تقول الرسالة الثانية إلى أهل كورنثية ٤: ٦: "**الله الذي قال، ليشرق من الظلمة نور، هو الذي أضاء نوره في قلوبنا، لتشرق معرفة مجد الله، ذلك المجد الذي على وجه يسوع المسيح**".

التأمل في أيقونات الفن المسيحي العظيم والرائع، يحتاج إلى كثير من التدريب والصبر والصلاة، لنرى بوضوح تفاصيل جمال وصفاء خارق، يلمس ويطهر القلب، ونلمس شعاعًا من المجد ينعكس من جمال حقيقي نتصل به وجهًا لوجه من خلال قوة الحقيقة. هكذا خبرة روحية ضرورية لكل إنسان لأنها تضعنا على الطريق الصحيح إلى الجوهر، الينبوع الأصلي لمصدر الحياة. طالما قلت دائمًا وبقناعة تامة إن الأعتذار، التوبة الحقيقية للرسالة المسيحية، هي الدليل القاطع والمقنع على مصداقيتها لأنها توازن وتعادل كل شيء يبدو

سلبيًا. فمن جانب هناك القديسين، ولدينا الجمال الذي يولد من الإيمان من جانب آخر. ولكي ينمو إيماننا اليوم، نحن والآخرين الذين نلتقي بهم في حياتنا، لدينا القديسين أكبر مثال نتعلم منهم، خبرات الاتصال مع الجمال الإلهي. ربما يقول البعض إن هذا الكلام مجرد تخيل وطيران غير واقعي، العكس هو الصحيح، لأننا بهذا الشكل نتحرر فكريًا من كل سطحية ووهم ونصبح قادرين على العمل الفعال والمؤثر، ونعطي ثمرًا طيبًا وفيرًا، لأن الحاجة إلى واحد فقط. تكفي بركته ونعمته ليشبع كثيرون.

اليوم في عالمنا المعاصر هناك تحدٍ آخر يواجهنا من العيار الثقيل: يستغلون الجمال المزيف بصورة سلبية رخيصة، للإغراء واللذة، العنف والشر، لإشباع الشهوة والنزوة، والقائمة تعرفوها طويلة عمومًا. هل يمكن أن يكون هذا حقًا هو الجمال الحقيقي؟ أليس هذا هو الوهم والخداع بعينه؟ هل هذا هو سهم الجمال الذي يجسد الحقيقة حسب مشيئة الرب؟ لكن الواقع مرير، يكشف شكلاً مغايرًا مشوهًا للجمال قد يصدم كثيرين، يحزنهم في كل زمان ومكان، هناك الكذب والزيف والقباحة، وهناك السطحية والانحلال لكل شيء جميل، تغزو المجتمعات، وعالم اليوم منقسم على ذاته. هناك شعارات مزيفة تقول: هل يمكن كتابة شعر جميل بعد مجزرة محرقة اليهود؟ هل يمكن التحدث عن الله الطيب والحنون بعد الآن؟ أين كان الله عندما كانت غرف الإعدام بالغاز تحرق الأبرياء؟ التاريخ حافل بكثير من الأسباب التي سببت العنف والإرهاب والكوارث قبل حادثة المحرقة! هذا دليل يؤكد أن المبدأ السطحي للجمال المجرد لا يمكن أن يحقق الرحمة العدل والسلام، كما يريده الله لنا، الرؤية العميقة الواعية فقط تستطيع أن تشبع جوع وعطش الإنسان المخلوق على شبهه ومثاله.

كان أبولو (Apollo) إلهًا بالنسبة لأفلاطون تلميذ سقراط، هو يؤكد صحة القول بأن الجمال المحض والصافي المجرد لا يمكن أن يصبح جمالاً إلهيًا حقيقيًا.

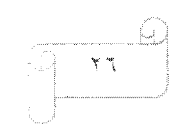
نعود الآن إلى نقطة البداية، إذ تحدثنا عن التباين في المزمور ٤٥ الذي يصف المسيح بأنه أجمل من كل البشر... ثم لا منظر له فنشتهيه، لأنه مضروب ومشوه. فالوصف الفائق لآلام المسيح، اتصاله بالإلهيات من خلال الرؤية اليونانية للجمال، تسمو إلى فوق عميقًا، وخبرة الجمال اكتسبت عمقًا ومعنى جديدًا يلمس باطن الإنسان، هو الأقرب إلى الواقعية.

صاحب الجمال الحقيقي نفسه، سمح لهم أن يضربوه، يبصقوا في وجهه، يُهان ويعذب، يتحمل الشوك في رأسه، وكفن تورينو يقرّب الصورة، وربما يوضّح لنا المشهد بشكل أدق، فعال ومؤثر جدًا. من هذا الوجه المشوه، تظهر الحقيقة الأصلية والجمال المطلق، الحب الذي يذهب إلى أقصى حدّ، إلى النهاية، خارج العقل والمنطق، هذا الجمال أقوى من كل إمكانيات الكذب والتزييف وقوى العنف والظلام.

من يعرف الجمال المضحي بهذا المعنى، يعرف أن الحقيقة هي من تدير العالم وتسيطر عليه، تمسك الخيوط بيدها، وليس الشر والفكر الظلامي. الكذب له أساليب مكر وخداع كثيرة ومتنوعة، يقدّم نفسه للناس بطريقة برّاقة وملوّنة، يشوه الحقائق كما حصل مع حواء، يقول مثلاً: توقف عن البحث عن الحب الحقيقي فهو غير موجود أصلاً، أنت تخدع نفسك، في المسار والطريق الخاطئ، لا تضيع الفرص، العمر قصير، أسرع تمتع بالحياة واللذة قبل مغيب الشباب... ألخ.

الشركاء في الحب واحد: أيقونة المسيح المصلوب تحررنا من كل خداع وكذب يجتاح عالمنا اليوم، وهذا يتحقق فعلاً عندما نسمح له أن يصيبنا بسهام حبه الإلهي التي تضع كل شيء جانبًا، ومن أجل خلاصنا يضحي بجماله الخارجي لكي يظهر الجمال الإلهي المطلق. الشر له استراتيجيات كثيرة في الخداع ومحاولات تضليل الناس ليثير فيهم حب التملك والأنانية والحسد واللذة، ويمنع من الانفتاح نحو الكمال والوعي المنير. هذا بالضبط ما حصل في سفر التكوين عند سقوط الانسان، ويحصل كل يوم في زمننا الحاضر: التنافس والصراع، اللعبة مستمرة، تقول حواء إن الثمرة شهية للعيون ومثيرة للنظر، لذيذة المأكل... ألخ. "الجمال" كما عرفته بشكله المزيف، يثير حبها بالامتلاك واللذة، يجعلها تتحدث مع نفسها، تنغلق على ذاتها، تأخذ قرارات منفردة، وتنسى الوعد، وأنها شريكة في حب واحد!

هذا يحصل كل يوم ويعرض اعلاناته بأرقى تكنولوجيات حديثة وجذابة، حتّى لا يقدر المتلقي أن يقاوم، فيسقط في شباك الصياد، ليختار اللذة الوقتية الزائلة، ويخرج عن الطريق الحقيقي المعد لنا منذ الأزل لعيش حياة القداسة والمجد التي كشفها لنا يسوع.

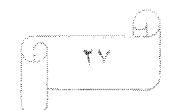


إذًا تقف الرسالة المسيحية في مفترق الطرق، بين نارين، علينا أن نختار أحدهما، هكذا كان الحال في الماضي والحاضر وستبقى المشكلة نفسها تواجه كل إنسان في كل عصر. **الحل:** علينا أن نثبت في الإيمان ونقاوم ضد ديانة الكذب والتزييف وثقافة الخداع والمكر، العنف والشر، بكل أشكاله وأساليبه السوقية، التي يحاول بها أن يجرد البشرية من كل شيء جميل وأصيل، يمنع الإنسان من أن ينمو بالقامة والنعمة والحكمة.

لمن لم يسمع ويقرأ للكاتب الروسي **دستوفسكي**، نقتبس المقطع الآتي: "**الجمال هو الذي يخلصنا**"، عادة ما ننسى أن الجمال المخلص الذي يقصده دستوفسكي هو المسيح يسوع. علينا أن نتعلم وندرّب حواسنا الروحية على رؤيته هو نفسه، ليس من خلال الكلمات فقط، بل نتعرف عليه عن قرب، نفتح له المجال ليصيبنا بجمال محبته الإلهية، هي خبرة علاقة الحب لأن من يحب وحده قادر أن يرى بعيون قلبه ما وراء المحدود، نراه من خلال التناقضات في الآخرين، مجروحًا ومتألمًا ومصلوبًا.

لا شيء يستطيع أن يوصلنا إلى الجمال الحقيقي سوى الذي يجسده الإيمان بالرب يسوع المسيح، ومن خلال النور الذي يشع من وجوه القديسين النورانية، يتجلى الجمال وشركة الروح القدس. ضحّى آباءُ الكنيسة على مرّ التاريخ بكل شيء من أجل أن يظهر نورهِ المخلص والشافي، هو المسيح القائم من الموت، وهنيئًا لمن فتح الباب لصاحب الجمال، هو واقف على الباب يطرق ليدخل ويتعشى معه.

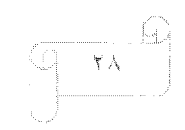
(الأشياء الحسية أداة للتعبير عن حبّ الله)



الفصل الثالث
الثقافة ووسائل الاتصال

الأنجلة الجديدة في الألف الثالث: لهذا الموضوع ثلاثة محاور رئيسية: **وسائل الاتصال، الثقافة، والأنجلة**. وسائل الاتصال والأنجلة يسيران جنبًا إلى جنب، لأن الأنجلة أي إعلان الكلمة تحتاج وسيلة نقل وأسلوب مؤثر فعال، والكلمة التي هي طريقة حياة، بل الحياة نفسها. السؤال الآن: كيف يمكن للإنجيل أن يعبر من عتبة بابي إلى الآخرين حولي؟ كيف يمكن تبادل آراء وشركة حياة في الإنجيل؟ كيف يمكن خلق علاقة وحوار بيني وبين الآخر وتأسيس وحدة عميقة من خلال كلمة الله؟

بين الأنجلة ووسائل الاتصال يقف في الوسط مصطلح **الثقافة**، التي يجب أن تُعتمد كأساس في نقل البشارة والرسالة الإنجيلية إلى المتلقي. لأن الإنجيل لم يُكتب لناس ليست لديهم أفكار ومفاهيم مسبقة، وصفحات الفكر لديهم ليست فارغة بيضاء ولم يُكتب عليها شيء، بل العكس هو الصحيح. كُتِب على صفحات البشر عبر الزمن الكثير من الأفكار والأيدلوجيات التي تفتقر إلى الحيز والوجود الإنساني الحقيقي، ولا يزال يُكتب عليها باستمرار. لكن السؤال هو: هل يوجد لنا مكان ومساحة فارغة لنكتب فيها رسالة الإنجيل؟ على الحافات أو بين السطور أو ربما تصبح مجرد معلومات تُخزن في الذاكرة ضمن كمٍ هائل من المعلومات المادية؟ ربما ستكون مجرد سطر واحد هامشي من بين مجموعة من الأفكار التي تهاجمنا يوميًا من خلال الإعلام، وفعاليات المجتمع، العولمة والتكنولوجيا. هل ما نطرحه سيؤثر بفعالية وينفذ داخل الذات الإنسانية أم سيصعب هضمها وربما تُرفض وتُطرح جانبًا لوجود تيار مضاد أكثر جذبًا وإمكانيات أكثر إقناعًا، ويتعامل بذكاء مع عالم المحسوس؟ لذلك هناك أهمية كبيرة لنقل البشارة بلهجة ومنطق معاصر، والتدريب للتعامل مع عالم الانسان الباطني، وهذا بالتأكيد يتطلب إجراء تعديلات مناسبة على النشاطات والأداء، لكي نضبط إيقاع الآلة الحياتية ويحصل التناغم والانسجام مع رسالتنا الإنجيلية.



إذًا صفحات البشر ليست بيضاء وجاهزة لنكتب عليها ما نشاء، القضية أعقد من ذلك، لأن الانسان يعيش ضمن محيط وثقافة وبيئة تطبع وتصوغ سلوكه وتصرفاته وأفكاره، هذه الثقافة هي مجموعة من المفاهيم والعادات والتقاليد، خبرات متراكمة من تجارب الشعوب والحضارات تُنقل من جيل إلى جيل على مرّ العصور، ولكل ثقافة أدوات تتعامل من خلالها مثل اللهجات والعادات والتقاليد التي يتبناها ذلك المجتمع، وتتضمن أيضًا قوانين وأنظمة الحكومات ونشاطات الأعياد والمناسبات الوطنية والاجتماعية والتراثية، هناك أيضًا الأزياء والفنون المختلفة من موسيقى ونشاطات فطرية وأشكال العبادة والطقوس التي تختلف من بيئة الى أخرى، والقائمة طويلة.

خميرة في العجين: من الواضح الآن أن على البشارة الدخول من باب الثقافة لكي تنجح الرسالة وتكون مفهومة وواضحة وتحاكي حياة الناس وخصوصياتهم، وتترك انطباعًا مؤثرًا لدى السامعين وتصبح خميرة تنتشر في العجين كله، علمًا أن الإنجيل لا يريد إلغاء أي ثقافة مهما كان لونها وشكلها، بل يحتضنها ويحتويها ويهذبها ويترك عليها بصمته لتصبح خبزًا طيبًا لكل الجائعين إلى الفرح والسلام، وما أكثر ما نحتاجه اليوم في عالمنا الممزق بالصراعات والحروب.

الإحساس العالي: (paide) كلمة يونانية ومعناها التعليم بأحساس عالٍ، تعليم يقود الإنسان إلى غايته وأصله الطيب، وحقيقته التي تشوهت خلال الزمن. في اللاتينية تستعمل كلمة (Eruditio)، وتعني الإنسان المرن والمتحرر من الخشونة والتعصب الأعمى، الإنسان المتدرب الذي روض نفسه ليكون على شبه الخالق في المحبة والقداسة. يدخل الإنجيل من خلال هذا الإحساس العالي والجوهري بالتعليم والإرشاد والتربية، من خلال الثقافة ويجمع كل العوامل المساعدة الأخرى لبناء المشروع الإنساني الكبير عمومًا.

عندما نتعرف وندرك جيدًا أبجدية الثقافة، تسير الكرازة في ذلك الاتجاه العملي والسليم، وتفتح الأبواب والنوافذ لإيصال رسالة الإنجيل، مع الأخذ بالاعتبار كل التحديات التي نعيشها في الألفية الثالثة، لكي لا تصبح مجرد نظريات وأفكار تجريدية بعيدة عن الواقع المعاش.

السؤال الآن: ما هي الثقافة التي تُكتب على صفحات فكرنا اليوم؟ هذا يتطلب مزيدًا من البحث والدراسة ومراجعة الذات لنعرف الجواب الشافي. نحن نتكلم عن كنيسة ايطاليا على سبيل المثال، مع كل خصوصيتها وثقافتها الغربية التي تنتمي إليها، هذه الثقافة تأسست وبنيت بواسطة الإيمان المسيحي الكاثوليكي، بلا شك لا زالت فاعلة ومؤثرة أكثر من أي دولة غربية أخرى، رغم أن الإنجيل لا يخاطب كل المسكونة والسبب لأنه محلي. بالرغم من ذلك علينا ألاّ نستخف بعناصر الثقافة المسيحية في غمرة الحماس الديني لمحاولة تغيير أو تجميد الإرث المسيحي بحجة أنه قديم وعفا عليه الزمن. ظهر هكذا نوع من الحماس في فترة ما بعد المجمع الفاتيكاني الثاني هنا وهناك، في زمن الانقسامات الغربية. وبشكل مفاجئ، اعتبروا كل الثقافة المسيحية الموجودة آنذاك عتيقة وتعود إلى فترة ما قبل المجامع المسكونية. كلا، يجب أن نفرح بأن كل تلك الأشكال الثقافية المسيحية الأصيلة بكل قوالبها لا زالت محفوظة ومصانة في حياتنا، لأنها إرث وتراث الآباء الأوائل والقديسين، لكن من الضروري إزالة الغبار عنها، تقويتها وصيانتها وإعادة العمل بها من جديد.

العلمنة والحداثة: حتّى في العصور الوسطى، كانت الثقافة المسيحية ولا زالت موجودة مع ثقافات وتقاليد أخرى غير مسيحية، تتعايش معها جنبًا إلى جنب، حتى كان بعضها ضدّ المسيحية. هكذا في عصر التنوير عندما ابتعدت الثقافة الغربية عن أصولها المسيحية فجأة وبسرعة، فأدت إلى انحلال العائلة ومفاهيم الزواج، وانحدار القيم والأخلاق، وتصاعد موجات العنف والاعتداء على الكرامة الإنسانية. وأخيرًا تراجع الإيمان بحجة العلمنة والحداثة والتطور، والمعرفة ونسبية القيم الأخلاقية، فنرى الانقسامات والتفكك المجتمعي في كل المجالات بشكل واضح جدًا.

إلى هذه الدرجة مزقت الثقافة المعاصرة في ايطاليا وبطرق مختلفة، أوصال المجتمع بتأثير العالم الغربي، بمتناقضات داخلية كثيرة، فالثقافة المسيحية كانت موجودة هناك تحاول الدخول وايجاد البدائل، بطرق وأساليب حديثة، لكنها كانت تصطدم بالمعارضة المضادة لثقافة التعصب والأنغلاق. على الأنجلة الجديدة التي تتحاور مع هذه الثقافات ألاّ تكون أحادية الجانب. في وجود هكذا تناقضات، علينا التعلم والتدرّب على فن الإدراك

والاستيعاب، ببصيرة منفتحة وواعية تحقق نجاحات في المجال العلماني الذي تركوه مهملاً لزمن طويل، ومن هذا الباب يمكن أن يدخل الإيمان.

فن جني ثمار الجميز: قبل أن أصوغ نتائج وتوصيات وأفكارًا للموضوع، أود أن أوضح الصورة التي تواجهنا ونصطدم بها، من خلال موقف مشابه لحالنا اليوم، مرّ به القديس **باسيليوس الكبير**، عندما كان يخاطب الثقافة اليونانية، وهو يستشهد بنفس مبدأ النبي عاموس (**١٤:٧**) فيقول فيه: "**إنما انا راعي غنم، وقاطف ثمار الجميز**". تبيّن النسخة اليونانية في الترجمة السبعينية هذا المقطع بشكل أوضح فيقول بحسبها: **أنا مجرد شخص يشق ثمار الجميز**، لأن ثمار الجميز تشبه التين ويجب عمل شق في الثمرة قبل قطفها ليخرج منها سائلٌ مرّ، وتُترك لتنضج خلال أيام فيصبح طعمها حلوًا وطيبًا. ويشرح القديس باسيليوس هذه النقطة في تعليقه على نص من سفر إشعيا (١٠:٩) فيقول: عادةً ما تحمل شجرة الجميز ثمارًا كثيرة جدًا، لكنها مرّة ولا تصلح للأكل ما لم تعمل شقًا صغيرًا في الثمار قبل قطفها ليخرج منها عصير أبيض مرّ، وتُترك لعدّة أيام لتنضج، فتصبح طيبة حلوة المذاق. يريد القول إن الثمار رمزٌ للعالم الوثني الذي لديه وفرة وكثرة لكنها بلا فائدة، تفتقد الطعم الطيب لأنها تحيا حسب النموذج اليوناني وثقافة العالم الوثني المادي، ونفس الشيء ينطبق على عالم اليوم المعاصر بطرق وأساليب مختلفة لكن بنفس المعنى والشكل.

ثقافة عالمنا اليوم تحتاج وبالحاح لعمل شق فيها من خلال الكلمة، لكي تخرج كل مرارة وسلبية، وأنانية ونرجسية، وتتطهر من السطحية والانغلاق، فتصبح ذا طعم ولون ورائحة طيبة مفيدة لبناء حضارة المحبة والسلام.

من خلال نموذج الوفرة، ترف وغنى العالم الوثني، يعلّق المفسر واللاهوتي المسيحي **جنلكا (Gnilka)**، فيقول: يحتاج العالم إلى تغيير، لديه وفرة لكن ينقصه الكثير، يحتاج إلى التعديل والإنضاج لكي يتكامل، ويصبح مفيدًا وصالحًا، بالطبع بدون إلغاء أو رفض تلك الثقافة، لأن الثمرة تبقى نفسها ثمرة لكن ما كان غير نافع يتحول ويهتدي وينضج. لن يحصل التحول من الشجرة نفسها، أو من الثمار، بل تحتاج إلى تدخل جراحي خارجي، من جاني ماهر ذكي لثمار الجميز، هو فقط يستطيع تغيير الحال بواسطة الكلمة.

عندما نتأمل النص بعمقه ومعناه الواسع، نكتشف أن الكلمة تقود ثقافتنا نحو الكمال الإلهي والاهتداء لنعود الى أصلنا الطيب الحلو، وتجعلنا خدامًا لها، لنصبح محترفين بأمتياز في شق ثمار الجميز بكل زمان ومكان، لنتحمل مسؤولية حمل البشارة وابتكار طرق وأساليب جديدة تواكب العصر والتحديات الحاضرة، والتعامل مع كل ثقافة مهما كان شكلها ولونها، ونتحلى بالشجاعة والصبر ونكتسب خبرات وتجارب لنؤثر في اهتداء عالمنا المعاصر ليصل إلى الكمال النهائي المطلوب.

لا يتحدث القديس باسيليوس عن اهتداء أفراد بل يقصد تعديل الصورة كلّها، والتأثير في الثقافات والأعراف والتقاليد، خصوصًا أن التقاليد قد تتجاوب بنسبة أقل أو أكثر عندما تواجه ثقافتنا المسيحية كما تذكر دراسات وبحوث آباء الكنيسة.

شقّ الثمار: القصد من وراء كل هذا ابتكار طرق ووسائل اتصال تلائم ثقافة وظروف هذا العصر، خلق علاقة بين الإنجيل والثقافة، علمًا أننا لا نتعامل مع أفراد بل مع جماعات، والإنجيل لا يدعم أو يلغي ثقافة معينة، بل يحتوي ويستوعب الكل، يؤثر فيها، يطهرها، ينقيها، ويترك بصمة واضحة، لتنمو الجماعة روحيًا وإنسانيًا في النعمة والمحبة والقداسة السماوية.

الأنجلة الجديدة لا تعني الانصهار، او الانسلاخ، ولا تلبس ثوب تلك الثقافات. القصة ليست مجرد تحديث في الطقوس (الليتورجيا) أو خطابات ومواعظ رنانة تحاكي رغبات العالم، وليست نظريات وفلسفات مجردة، بل هناك خطة عمل مطلوب انجازها بدقة وحكمة وصبر، مطلوب شق الثمار لإنضاج المشروع الانساني لكي ينال الجميع الشفاء والخلاص النهائي، وهذا يجب أن يحصل باهتمام وحب واحترام وفي الوقت والمكان المناسبين، وإدراك ما تخفيه تلك الثقافة من مرارة والاستعداد لردود الفعل وطرق الاستيعاب والعلاج، والنتيجة ليست فورية كما يتصور البعض. علينا أن نفسح المجال للكلمة أن تنضج الإيمان من خلال المؤمنين برسالة الإنجيل.

يبدو لي أننا حددنا المتطلبات الأساسية لنجاح اللقاء بين الإيمان والثقافة، في عصرنا الحاضر، وكذلك تصحح النظرة الأحادية المرافقة لمصطلح الأقلمة.

مقترحات عملية: من المفيد تحديد ثلاث نقاط عملية تضعنا على أول الطريق في رحلتنا الإنجيلية:

أولاً: الانفتاح: كان الإيمان المسيحي منفتحًا دائمًا على كل ما هو عظيم وأصيل وطاهر، في أيةٍ ثقافة كان. يشرح الرسول بولس في الرسالة إلى فيلبي ٤:٨ ذلك: "**فاهتموا "بكل ما هو حقٌ وشريفٌ وعادل وطاهرٌ وبكل ما هو مستحبٌ، وحسن السمعة وما كان فضيلة، واهلا للمديح، واعملوا بما تعلمتموه مني واخذتموه عني وسمعتموه مني، ورأيتموه فيَّ، وإله السلام يكون معكم**". في هذا المقطع يذكرنا الرسول بولس بأسلوب الفلسفة الرواقية، التي تشبه المسيحية إلى حدٍ ما، وتعني قبول كل شيء صالح ومفيد، جميل وعظيم، في الثقافة اليونانية والاغريقية.

إن المبادئ التي يطرحها الرسول بولس حقائق كونية، ومن يطّلع عليها سينفتح على كلام الله، **بذور الكلمة**، التي نتحدث بها، نطورها لتؤثر بدرجة أعمق وأقوى، مع الأخذ بنظر الاعتبار الوضع الاجتماعي والسيكولوجي لثقافة العالم، والقوى المضادة التي تعارض انتشار الإيمان، من هنا تكون نقطة الانطلاق والبداية.

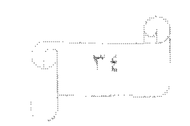
كانت نقطة البداية لانتشار المسيحية الأولى في المدن، من خلال الثقافة السائدة آنذاك، ثم انتشرت إلى الريف الذي بقي وثنيًا لفترات طويلة، إلى أن وصلته المسيحية وتكيفت مع الثقافة والتقاليد الفلاحية، بخطوات بطيئة وذكية مدروسة، فكانت كالنار تدفئ وتنقي وتطهر كل شيء. اليوم نستطيع نحن أيضًا أن نجد لنا مكانًا في ثقافة المدن المعاصرة، ونستثمر الوزنات التي لدينا من الربّ بحكمة. هناك اليوم نشاطات الحركات العلمانية والرسولية، مثل حركة على الطريق إلى الإيمان، وهناك رحلات الحج إلى الاماكن المقدسة، وذخائر القديسين، لقاءات كنسية، ومؤتمرات الأساقفة، كل هذه النشاطات هي أرض خصبة لانتشار بذور الإيمان.

ثانيًا: الخبرة: الإيمان خبير في بناء الجسور، ويقبل كل ما هو حسن وجيد، لكنه في الوقت نفسه ضد كل ما يمنع انتشار الكلمة وغلق الأبواب ووضع الحواجز والعراقيل أمام كلمة الإنجيل، وهذا متوقع لأن شق الثمار يحرج الثقافة المضادة، وهنا يجب أن نستمر بلا خوف ونتحلى بشجاعة القديسين للعمل مع الثقافات المنغلقة الأخرى في عالم اليوم. ولا يوجد نجاحات بدون عمل جدي وصبر وتضحيات. نستثمر الخبرة الروحية التي لمستها محبة الله ووجوده لتنقي وتهذب المحبة البشرية وتجعلها ذكية وطيبة وإنسانية.

يشرح اللاهوتي **راهنر** ذلك في أطروحة بعنوان (pompadiaboli)، الكفر بالشيطان هو جزء من مراسيم طقس العماذ، ما قصد المسيحية من ذلك؟ الجواب يعود إلى الممارسات الوحشية التي كان العالم الوثني يمارسها، حيث عمليات ذبح البشر علنًا في الساحات العامة أمام تجمعات الناس بمنتهى القسوة والوحشية، وهذه العمليات كانت تجري باستمرار للترفيه والتسلية، هذا مثال على الثقافة المريضة التي لا تحترم الكرامة الإنسانية، والتي استطاعت المسيحية أن تعالجها وتضع حدًا لها. من هنا جاء القسم بالكفر بالشيطان لمن يهتدي إلى المسيحية، لأنه عليه أن يرى صورة الله في وجه كل إنسان، ولكي يعيش حياة القداسة وخلاص الربّ يسوع المسيح.

شقّ ثمار الجميز يعني معالجة الثقافات المشوهة والمريضة والسلبية تجاه الإنسان لكي تنال الشفاء والخلاص الذي يحتاجه عالم اليوم. ألا تتشابه ثقافة الماضي مع ما يجري من كوارث وصراعات وحروب كل يوم هنا وهناك في عالمنا المعاصر؟

ثالثًا: شركة الإيمان: لا أحد يعيش وحده، لأن الإيمان وعي شخصي وحب، فعل حياتي جماعي **(نؤمن)**، كثرة متحابة، والاهتداء إلى المسيحية يتطلب عيش الكلمة، ممارسة الإيمان، السير في الطريق مع الآخرين. فالأنجلة الجديدة ليست مواعظ جميلة ونظريات تجريدية بل خبرات حقيقية معاشة، تتحقق من خلال المشاركة واقتسام الإيمان، لذا كان التركيز على التعليم المسيحي ضرورة قصوى، الموعوظية والمرافقة، توضيح الأسرار في الإنجيل، خصوصًا في بداية الاهتداء وممارسة الوصايا عمليًا وواقعيًا.



كتب **القديس قبريانس القرطاجي** عن قصة اهتدائه إلى المسيحية فيقول: لم أتصور أن أحدًا يتمكن من عيش وتطبيق متطلبات إيمانه المسيحي، لصعوبة تجاوز أعراف وتقاليد زمانه التي تعود عليها، وارتبط بها سنين طوال. هو يعطينا خبرة حية عن مدى تأثير الثقافة في حياة الناس. السؤال الآن: هل يستطيع الناس اليوم الاهتداء إلى الإيمان المسيحي؟ في هذه الظروف والصراعات القائمة والحروب المجنونة، ألا تبدو ديانة قديمة وشبه مستحيلة؟ كم من الناس يطرحون هكذا تساؤل ويقرّون بصعوبة تطبيق الوصايا الإلهية وما هو مطلوب بحذافيره؟

يخبرنا القديس قبريانس أن لا شيء مستحيل، فمهما كانت الظروف نستطيع عيش إيماننا المسيحي من خلال كلمة الرب التي تحل فينا وتعمل معجزات في شركة حياة الجماعة. بالاقتسام والتضامن والمحبة الأخوية تؤسس حياة جديدة وتتكامل على ملء قامة المسيح يسوع.

غريغوريوس النزيزي: بعد أكثر من مائة عام على وفاته، يكتب عن قبريانس فيقول: له معرفة واطلاع واسع، مؤلفاته الكثيرة تشهد له، بفضل نعمة وخير وطيبة ربنا الله خالق كل شيء، ويغير كل شيء نحو الأفضل. اقتبس من عاموس (٥:٨): **"هو الذي خلق الثريا والجوزاء ويحول ظل الموت صباحًا والنهار ليلاً مظلمًا، يدعو مياه البحر فيفيضها على وجه الأرض، الرب اسمه"**. لقد تعرض إلى المبادئ اللاعقلانية وتمكن من تغيير ثقافة زمانه بطرق ووسائل اهتداء ملائمة من خلال تدخل الكلمة نفسه، شقّ الثمار، جلب كل ما هو جوهري وأساسي وحقيقي إلى جماعته ونجح في عمل مشروع الإنجيل بجدارة وامتياز.

كانت مهمّة شقّ ثمار الجميز في الثقافات القديمة ناجحة بامتياز، من إنجاز آباء الكنيسة القديسين العظام، حوّلوا كل شيء عديم الفائدة ورديء إلى ثمر طيب حلو المذاق صالح للأكل. هذه هي المهمّة التي تنتظرنا اليوم في مواجهة مدّ العولمة والإلحاد المعاصر في عالمنا المشوّه الضال في صراعات وأيدلوجيات أنانية مريضة تفرغ الإنسان من وجوده ورسالته الأصيلة. **"مهمتنا أسمها الأنجلة الجديدة"**.

الفصل الرابع

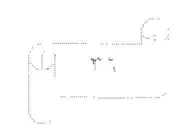
المسيح مخلص البشرية وكنيسته المسكونية

صدر عن مجمع العقيدة والإيمان دستورًا رسوليًا بعنوان "**يسوع هو الربّ**"، عام ٢٠٠٠ في اليوبيل العظيم لولادة الربّ يسوع المسيح من العذراء مريم، بقوة الروح القدس، والغاية منه هو التركيز على وحدانية وشمولية الخلاص في يسوع المسيح والكنيسة.

تعيد هذه الوثيقة إعلان اعتراف الكنيسة الأولى، حيث كتب الرسول بولس رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس، ليشهد للكلمة التي أعطيت لنا من الروح القدس فيقول: "**لا أحد يقدر أن يقول إن يسوع ربّ إلا بإلهام من الروح القدس**" (٣:١٢)، وكذلك في الرسالة إلى أهل روما (٩:١٠): "**فإذا شهدت بلسانك أن يسوع ربّ، وآمنت بقلبك أن الله أقامه من بين الأموات، نلت الخلاص**".

تنبع شهادة الرسول بولس من إيمان عميق بالحقيقة التي أُعطيت لنا مجانًا كهبة وهدية من صاحب النور والجمال الذي هو أساس كل معرفة ونور. يعتبر هذا الإعلان البولسي أصل التقليد المسيحي للكنيسة الأولى. فعندما شهد بطرس الرسول للمسيح في ردّه على السؤال: من أنا في رأيكم؟ فأجابه: "**أنت المسيح**"، يحفظ بولس هذا الاعتراف ويعرف أنه هبة من الربّ وليس استنتاجًا فكريًا وعقليًا، لذا نرى في مقاطع موازية يقول: "**طوبى لك يا سمعان فما أعلن لك هذا من لحم ودم إنسان، بل من أبي الذي في السموات**". في كلا الحالتين، نكتشف أن الاعتراف ليس نتيجة خبرة ذاتية وإنما من كشف إلهي يُدعى (الوحي)، يتجلى للمؤمن بالربّ يسوع بقوة الروح القدس.

اعتراف بطرس وبولس شكلان من التعبير عن الإيمان بصيغتين مختلفتين، صيغة بطرس هي بمثابة صلاة تتوجه إلى يسوع المسيح، أما صيغة بولس فهي عقيدة ملهمة، تُرتل عند انعقاد المجامع الكنسية، وتعبّر عن الحضور الإلهي بالروح القدس وتعبير عن الهوية، وما تريد أن تقوله للعالم والإنسانية جمعاء.



المشيح: عندما يقول بطرس "**أنت المسيح**"، يكشف سرّ يسوع ومهمته وعمله الذي جاء من أجله. وهذه العبارة تستمد قوتها من رجاء شعب اسرائيل ومعاناته الطويلة في الغربة، وانتظاره بلهفة وشوق ظهور المخلص لتحقيق مواعيد الله وافتتاح الملكوت. نستعيد إلى الأذهان شخصية الملك داود، وههنا داود جديد، يأتي عند إكتمال الازمنة، فيقول المزمور الثاني: "**أنت ابني، أنا اليوم ولدتك**". يسوع نفسه يتجنب ويتحفظ على هذه الكلمات، بالرغم من أنه متجذر في قلب رجاء شعب اسرائيل، خوفًا من أن يُساء فهم رسالته.

المشيح أم الرب: صيغة الاعتراف بالربّ بحسب إنجيل مرقس تتوضح أكثر في لوقا (٩:٢٠) فيقول: "**أنت مشيح الله**"، لكن صيغة متى (١٦:١٦) تتوسع أكثر فيقول: "**أنت المسيح ابن الله الحي**". أما رسائل بولس الرسول فتستعمل كلمة (kyrios) وتعني الربّ بدلاً من المشيح، وهي نفس الكلمة التي استعملت في العهد القديم لوصف الله، ويتحفظ اليهود فلا يجرؤ أحد على لفظها، وبإطلاق تسمية الربّ على المسيح تتوضح هويته الإلهية تمامًا.

استبدلت الترجمة اليونانية للعهد القديم كلمة الله بكلمة الربّ، لكي تنقل الإيمان الكتابي إلى العالم الوثني، وهو أمرٌ يحدث للمرّة الأولى: أن تُنقل وحدانية الله إلى عالم متعدد الآلهة، ولكل إله اسم وشكل ووظيفة، وكانت موجودة في الثقافة اليونانية. لهذا السبب تمّت المعالجة اللغوية في رسائل بولس، لكي تصل الرسالة إلى هدفها بنجاح. تسمية يسوع بالربّ تعني أنه إله من إله وليس مجرد رسول أو نبي.

هوية يسوع: إعلان بطرس في قيصرية فيلبس وفي التقليد الإزائي وكشف سرّ يسوع المسيح، يساعدنا في اكتشاف العلاقة بين جوهر المسيحية وموقفنا اليوم نحن المسيحيين. هو يسأل التلاميذ: من أنا في رأيكم، فيقولون له البعض يقول يوحنا وآخرون إيليا وهناك من يظن إرميا، أو واحد من الأنبياء! تأتي آراء الناس من خلفيات ثقافية مختلفة لتفسّر هوية يسوع. بالمقابل نجد الوحي يكشف لبطرس بأنه الربّ، وبذلك يضع النقاط على الحروف وينتهي كل غموض.

الناس اليوم لا يختلفون عن الناس في زمن يسوع. في نهاية المطاف نحن جميعًا تقليديون في أفكارنا، والسؤال نفسه يتبادر إلى ذهن كل واحد منّا! على سبيل المثال، الفيلسوف الألماني كارل كاسبر، يقارن ويشبّه يسوع بسقراط أو بوذا وكونفوشيوس، ويعتبره واحدًا من أربعة رجال مؤثرين في التاريخ الانساني، ونجد آخرين يفسّرون هوية يسوع بناءً على دراسات علمية وتاريخية بحتة.

يسوع التاريخي: منذ عهد الفيلسوف راميروس (١٧٦٨-١٦٩٤) طُرحت أفكار ونظريات حول تفسير هوية يسوع، واستمرت إلى بداية القرن العشرين. ومن خلال الفيلسوف ألبرت شويتزر الذي يقول: "**لا يوجد شيء سلبي أكثر من نتائج البحث في حياة يسوع... لأن هذا الموضوع لا يخص ميدان التاريخ، بل يفصل بين ما هو خالد وجوهري في يسوع وبين الشكل التاريخي الذي جسّده**". المشكلة هنا أن كلامه لم يذهب إلى العمق المطلوب لكي يغني الموضوع، لذلك استمرت محاولات ترميم صورة يسوع التاريخي بعده، فنصبوا أنفسهم مكان الشخص الحيّ الذي لا يمكن التعرف عليه أبدًا من خلال البحث النظري والعلمي وحتّى التاريخي.

الإيمان وحده يفتح العيون والآذان، ويعطي المؤمن بصيرة يفهم من خلالها معاني الحياة والخلود ويتعرّف على يسوع المسيح الحقيقي. الإيمان رؤية نيرة ووعي عميق، يتجاوز المحدود والسطحي لأنه بحر لا قرار له. ليس الإيمان معلومات وعلم ومعرفة، هو خبرة وجود وعلاقة إيمان بشخص، لا بشيء لأن الشخص لا يؤمن إلا بما يشبهه. ويتطلب علاقة متبادلة، قبول وحب، بعيدًا عن كل تجريد ومصلحة سطحية. ومن يؤمن ويحب، يعرف حلاوة وجمال وغنى الحقيقة.

عالمنا اليوم معجب ومذهول بالتكنولوجيا الحديثة ويثق بها إلى درجة كبيرة، فالعلوم والاختراعات هي سمة هذا العصر **(الذكي)**، الواثق من نفسه. يا ترى هل تغيرت صورة يسوع التاريخي في نظر الناس اليوم؟ وطالما العلم يتناقض مع معطيات الإيمان، لأنه ميدان مختلف مستقل بذاته وكشف وحي، ووعي ومسألة وجود تمس الأعماق، لا يمكن إخضاعه

للتجارب العلمية مهما تطورت (الأنظمة الذكية) والتكنولوجيا الحديثة. الإيمان شيء آخر مختلف تمامًا، خبرة فريدة وغنية ومستقل بذاته.

فاوست: في مسرحية فاوست للفيلسوف الألماني جوته، نرى البطل يسخر من العلماء وينتقدهم. والقصة باختصار أن البطل فاوست ورث أموالاً ضخمة، وتعلّم علومًا كثيرة ومتنوعة من علوم زمانه. وعندما تقدم به العمر، اكتشف أن كل العلوم التي نالها لم تنفعه بشيء، ولقد أضاع سنوات شبابه بدون متعة أو حبّ كبير. فظهر له الشيطان واتفق معه أن يطيل عمره ٢٤ سنة من سنوات شبابه، بشرط أن ينفذ رغباته، فمضى في درب الرذيلة والفسق والشرّ، لكنّه وقع في حب فتاة جميلة وتعلّق بها إلى حدّ العشق. فلما طلب منه الشيطان تركها، رفض لأنه يحبّها ولا يريد النساء الكثيرة التي عرضها عليه، وأصرّ على حبّ حبيبته. لكن عندما أراد الشيطان أن يأخذ روحه لأنه نقض الاتفاق بينهما، جاءه صوت من السماء قائلاً: "**لن تنجح فيما تريد يا شرير**".

كان **اللاهوتي واكنر** محقًّا في طروحاته حول إعادة ترميم صورة يسوع التاريخي فيقول: "**ما تسميه روح العصر هو بالحقيقة روح الرجال التي تنعكس من خلال العصر**".

في بداية القرن العشرين، ظهر لاهوت التحرير (يسوع المحرر) على يد اللاهوتي **هارناك**، من خلال محاضرات ألقاها بعنوان "**ما هي المسيحية**". الشيء الجوهري عنده هو أن يسوع استعاض عقائد العبادة بالأخلاق، وبدل الفردية صارت جماعية وشركة واقتسام، ويقول: يمتلك يسوع شخصية فريدة وحبه نابع من القلب دائمًا، فهو يؤمن بذاته وبالأخلاق.

تحملتْ رسالة الإنجيل الكثير من العبء، وأُرهقت بالتفسير المضني والمداخلات الكثيرة التي ذكرنا بعضًا منها، لذلك يجب ألاّ نقحم أفكارًا غريبة ومتطفلة على رسالة الإنجيل، **الله هو الروح والروح هو الله**.

بعد أكثر من نصف قرن ظهرت الوجودية على يد **بولتمان**، لتضع يسوع بانسجام مع الأفكار الانطباعية. اقتبس مقطعًا واحدًا يوضح الصورة التي تعبّر عن شكل يسوع من خلال

التقوى والطقس: "**بمعنى أن يسوع هو فكرة الله، وهو خارج سياق التاريخ. والرجل الذي ظهر على ضوء فكرة الله ليس تاريخيًا، لأن علاقته بالله الآب مباشرة تفصله عن أي روابط تاريخية... الإنسان بالنسبة ليسوع ليس علمانيًا، لأنه مرتبط بالله الذي يهتم به، يحفظه ويرعاه، ويواجهه بمصيره النهائي، وينزع منه كل شيء دنيوي. الله أيضًا ليس علمانيًا، هكذا يصبح الفعل الإلهي مفهومًا، فعلاً أواخريًا يسحب الإنسان من كل رابط دنيوي ويضعه تحت أنظاره وحمايته**".

لاهوت الرجاء عند مولتمان: ظهر عام ١٩٦٦، ويقدم صورة أخرى عن يسوع الأواخري وعن تحقيق المواعيد الإلهية: "**معرفة المسيح هذه استباقية وجزئية لمستقبل المسيحيين، وكما قال سيكون**". أدت كتابات مولتمان إلى ظهور يسوع الماركسي، ذاك الثوري الذي ناضل ومات من أجل الحرية، ليحرر الإنسان سياسيًا واجتماعيًا: "صُلِب يسوع مكان باراباس، أو باركوبا". بعد ذلك ظهرت صورة أخرى ليسوع تحاكي أفكار العصر الجديد (New age) في محاولة لجعله يواكب الحداثة. كل صور وأشكال يسوع هذه تكونت من خلال عنصرين: تحليل نصوص الإنجيل والتأويل.

أولاً– تحليل نصوص الإنجيل: عن طريق الاستعانة بطرق النقد التاريخية التي تعتمد على الفرضيات الفلسفية المتعاقبة في فترات معينة، والتي تعتبر التاريخ عنصرًا أساسيًا وجوهريًا للبحث وهو دائمًا مثالي، ولا يمكن لأي شيء أن يأخذ مكانًا فيه إلاّ ما كان مقبولاً ومعقولاً للاسباب المعروفة فطريًا في الإنسان. اللغط هنا هو أن التدخل الإلهي يتجاوز كل شيء منطقي ومعقول وبديهي ومعروف في الإنسان، لذلك لا يمكن أن نعتبره مجرد تاريخ. على المؤرخ أن "يفسّر" بحرفية كيف تكونت المفاهيم والفكرة، حسب الفكر والمنطق السائد في تلك الحقبة، وكيف تطورت الرؤية، ويمكن أن يعيدها إلى أسبابها المنطقية والمعقولة. لهذه الأسباب لا يمكن للإنسان أن يصبح الله ويصنع معجزات، لأنها تتطلب تدخلاً إلهيًا، لأنها تقوّض وتنسف المبدأ العام كله. بالتالي تصبح هذه القصص مفهومة بعد النقد ليخرج المعنى والهدف النهائي إلى النور.

يجب أن نفهم كلام يسوع الذي يطلب فيه تدخّل الله لعمل معجزات بهذه الطريقة: نبيّن أولاً أن أهمية وقيمة الحدث يمكن أن تتطور وتُعاد إلى مصدرها التاريخي الأصلي. كنتيجة لذلك ظهرت بحوث ومصادر كثيرة ومختلفة من أجل بناء وإحياء التاريخ معًا، ولتكون الدراسات الأكاديمية حثيثة ومؤثرة، بالرغم من أنها تبدو في بعض الأحيان غامضة وغريبة لما تحويه من تعقيدات وتناقضات داخلية كثيرة.

نسمع بين الحين والآخر تصريحات علماء وباحثين بأن كل شيء قيلَ على شخصية يسوع قابل للشرح والتفسير تاريخيًا، وأنه ليس تاريخيًا بالأصل! هكذا كلام قاسي يؤثر ويجرح الضمير الإنساني للمؤمنين المسيحيين، وتعدي كبير على الكنيسة عمومًا.

ثانيًا- التأويل: تلتقي صورة يسوع التاريخية بمنظورها الفلسفي كالعنصر الأول، وتندمج مع العنصر الثاني لتشكّل صورة عن يسوع على مرّ العصور المتعاقبة. العنصر الأول يكمن في تحليل النصوص بصورة نقدية ويعود بيسوع إلى الماضي. لذا فيسوع المصادر النقدية لا يتحدث معنا ولا يقول لنا شيئًا، لأنه حضور حقيقي حي لكل عصر ومكان. لذلك فالرؤية التي تظهر في عهد معين تندمج مع الشخصية، وهذا شيء ليس بالسهل، أي أن تنسب كنتيجة لتفسير تأريخي محض، لأنه يجب أن يترك علامة مؤثرة في الحدث الباطني نفسه الذي يظهر كأنه تاريخي محض.

التصريحات حول صحة أو عدم صحة كلمات يسوع وحول أصالتها، وتحديد صيغ الأشكال الأدبية، وعملية النضوج والتطوير، تعتمد أساسًا على الصفات والمميزات التي يمكن توثيق صلتها بيسوع. على سبيل المثال، عندما تكون نقطة الانطلاق صورة يسوع الثوري، يظهر لاهوت التحرير، فتصبح كل المقاطع والأشكال الأخرى ثانوية، بينما العناصر ذات الصلة تصبح مركزية وأساسية، من أجل ذلك يتطلب النص تأويلاً وتفسيرًا جديدًا.

الافتراضات المسبقة حول يسوع الذي لا يمكن أن يكون "ابن الله"، وماذا ينبغي عليه أن يكون! تصبح هي نفسها أدوات التأويل والتفسير، لأن ما يظهره البحث التاريخي المحض

الصارم، في الحقيقة والواقع، هو مجرد نتيجة لافتراضات وتخمينات فلسفية وليست حقائق. والآن فالأفتراض بمساواة الأسباب الفاعلة عموما لها ما يبررها.

جرى الأمر ذاته مع أساطير القرون الوسطى حول القديسين، وكما تعاملوا مع المعجزات السابقة بأن أعادوها إلى جوهرها الأصلي، عملوا بالطريقة ذاتها وطوروا الصورة الواقعية للحدث التاريخي. ولكن الادعاءات القائلة بأن الآخر المختلف كليًا (الله) توغل في مجرى تاريخ العالم، يجب أن يتعامل معه بشكل نقدي وحاسم بالرغم من كل مبرراته، فسيصبح من الخطأ القاتل والخطير إقصاء الآخر (الله) كليًا لأنه يسمو ويتجاوز كل خبراتنا المعتادة. هذا هو الموقف الذي نحن عالقون فيه بالضبط، طبيعة معرفتنا العلمية المحضة وشكل ثقافتنا، يعيقان ويمنعان دخول الله إلى حياة عالمنا المعاصر، وفي تفاصيل حياتنا اليومية.

جاك مونود (j.Mond) العالم الفرنسي في مجال العلوم الطبيعية، خرج علينا بنظرة غريبة صاغها بشكل دراماتيكي (الصدفة والضرورة) يقول فيها: "حجر الزاوية في المنهج العلمي هو البديهية التي تقول إن الطبيعة موضوعية (objective)، بمعنى آخر: من خلال النفي المنهجي يمكننا الحصول على (الحقيقة) عن طريق تفسير الظاهرة من حيث السبب والغرض النهائي (التصميم)". ويضيف موند أيضًا بقوله: "البديهية الموضوعية طاهرة ونقية، محمية ومحكمة، ثابتة إلى الأبد، ومن المستحيل التخيّل أن هناك تجربة تثبت عدم الوجود للطبيعة في وقتٍ ما السبب (الغرض). الموضوعية تدفعنا لنتعرف إلى الطبيعة الغائية والسببية للكائنات الحية، لكي نتعرف بموضوعية على الغاية والغرض الذي نسعى إليه وندركه على الأقل في المظهر حيث يكمن التناقض المعرفي العميق.

حاول العالم جي موند في اطروحته أن يحلّ هذه المعضلة ويفسّر التناقض بقوله إن كل هذه السيمفونية الحية للطبيعة الرائعة للحياة ليس لها هدف وغاية، نشأت وظهرت وتطورت بالصدفة من خلال اندماج وتداخل الفوضى والضوضاء! لقد انزلق في نظرية لا يمكن اثباتها بقوله من غير الممكن إثبات وجود التصميم والغاية من الخلق الذي يعتبر أساس كل البحوث العلمية. بالتالي أرهق جي موند نفسه في بحث فقير لا معنى له بتاتًا. لأن من يؤمن بالعلم بشكل أعمى، من الصعب عليه أن يؤمن أن ما وراء هذا الخلق هناك هدف

وغاية، وهناك من يهتم بحياة الإنسان لأنها حياة مقدسة، وبدون الإيمان بوجود قوةٍ أكبر منّا لا يمكن قيام حضارة ومجتمع متحضر وإنساني بمعنى الكلمة.

في مجال التاريخ، لا يظهر التناقض بشكل واضح، وعلى وجه الخصوص حضور شخصية يسوع، لأنه عندما نمرّ في الواقع بموقف تناقض مشابه، وإذا حاول أحد ما أن يكون راديكاليًا ويتبنى باصرار (المبدأ الموضوعي)، يؤدي إلى استبعاد أي تدخل إلهي في مجرى التاريخ. الصور المختلفة والمتباينة عن يسوع التاريخي، هي انطباع للتعبير الذاتي، الخبرة الشخصية عن المبدأ الموضوعي، الذي ابتعد قسرًا وتخطى كل الحدود.

الآن في مسألة (تداخل الضوضاء)، التي طرحها مونود، هي فرصة للتطوير والتغيير الأساسي الذي جلب سرّ شخصية يسوع كما يقدمه العهد الجديد لنا، وأصبح الطريق المنير للبشرية، للثبات والصمود في الإيمان لقرون طويلة.

إذا كان (المبدأ الموضوعي) فعالاً بذاته وبلا قيود، فكل شيء له علاقة بالله وحضوره في التاريخ يجب أن يعود إلى الخبرة الشخصية والإحساس الذاتي. وفي هذه الحالة، كل شيء يصبح ذاتيًا، وفقًا للسؤال المطروح حول نوع الواقع المفترض، حضوره في الذاتية والشخصية، يبقى بلا جواب! ولا يمكن ليسوع أن يكون الله، بل يمتلك خبرة شخصية عن الله، ونتيجة لهذا الافتراض لا يبقى أي فعل تدخلاً إلهيًا في العالم، ولا اتصالاً ولا وحيًا وكشفًا إلهيًا بالمعنى السليم. وكل ما تبقى هو ذاتي وشخصي، مجرد خبرات ناس لديهم شعور لديانة معينة غامضة ومحيرة، رؤية مجزأة لواقع نحاول إبقاءه، نتمسك بأطراف خيوطه. لكن هذا الواقع لا يحدث من تلقاء نفسه. هناك نور لكنه ليس نورًا، هناك كلمات لكنها ليست كلمة. في هكذا موقف تصبح الديانة نسبية حتمًا، بعد ذلك يمكن أن نعترف بسهولة، وكما يحدث اليوم في كثير من الأحيان خارج المسيحية أيضًا: أن يسوع هو شخصية مهمة في التاريخ، وله خبرة دينية وهو أحد المتنورين. وهكذا تبقى خبرته مجزأة، تُضاف إلى جانب خبرات وإضاءات أخرى كثيرة لأخرين قبله، ولا يمكن أن نجمعهم معًا سوية، ليكمل بعضهم البعض، ليصبح لها اسم وعنوان وشكل كامل، إذا جاز التعبير.

في كل الأحوال، حسب هذه النظرة المجردة، الشيء الوحيد الذي يستطيع الإنسان فعله هو أن يختار إحدى هذه الخبرات والتجارب الكثيرة حسبما يناسبه ويخدم مصالحه وظروفه. المذهب الذاتي الشخصي، وحساب العواقب المترتبة عليه، هي التي تؤسس السلطة العليا في القضية الدينية. وبالنسبة ليسوع، المصدر الوحيد للخلاص الكوني الشامل يعتبرونه نوعًا من التمادي والأفتراض والغرور!

٤/١ الإيمان والتلمذة، باب للطريق إلى يسوع الحقيقي:

أزمة الله: المأزق الذي نحن فيه، والمشكلة الأساسية التي تواجهنا في البحث عن يسوع، يسوع الحقيقي، هي مسألة الله. وبمعنى أدق غياب الله عن عالمنا اليوم. (أزمة الله) كما يسميها ويصفها اللاهوتي يوحنا ميتز (J.B.metz)، فيقول إذا لم نحرر أنفسنا منها، فلن نجد يسوع أبدًا. وكما يقول يسوع نفسه في إنجيل يوحنا (٦:٤٤): "**ما من أحد يجيء إليّ إلا إذا اجتذبه الآب الذي أرسلني، وأنا أقيمه في اليوم الأخير**". اليوم أيضًا نستطيع التأكد من هذا التصريح اللاهوتي عمليًا، إذا تعرفنا إلى الله الآب عن قرب كما عرفه ووصفه لنا يسوع. عندها فقط نرى ونسمع صدى كلماته بنور مختلف، تنفتح عيون القلب والروح، ويصبح كل شيء واضحًا ونؤمن بعمق ووعي، ويقودنا الآب إلى ابنه كما قادنا الابن إلى أبيه السماوي. إن عين القلب ترى بصورةٍ أوضح، ومن يحبّ وحده قادر أن يرى الجمال الحقيقي (اوغسطينس).

٤/٢ the Big Bang

علينا الآن أن نسأل أنفسنا مرةً أخرى وبجديّة: هل الله موجود حقًا؟ هل هو الله حقًا؟ هل يمكنه التواصل والعمل مع عالمنا وإقامة علاقة معه؟ يقول يسوع في إنجيل يوحنا (٥:١٧) "**أبي يعمل في كل حين، وأنا أعمل مثله**". الربّ يسوع يضع نفسه بالكامل في خدمة مشروع الله. ألا يقال إن الله انسحب بعد الانفجار العظيم (Big Bang) ولم يعد يعمل بعد؟! السؤال الآن: هل الله لا يزال يعمل أم لا؟ هل الله هو الله فعلاً أم لا؟ جاك مونود يقول إن المبدأ الموضوعي أساس كل العلوم، بالرغم من أنه لا يمكن إثبات ذلك. حسنا، ولكن السؤال حول

وجود الله، وهل لا يزال يعمل أم لا، هذا لا يمكن إثباته أيضًا؟ جاك مونود يبرر المبدأ الموضوعي بناءً على نتائج البحث والتحليل العلمي. إذًا الموقف مشابه لمسألة الإيمان بوجود الله كذلك.

في نهاية المطاف، يعود القرار إلى الفكر وحده حول ما إذا كان الخير والشرّ، الحقيقة والكذب، مجرد مسألة ذاتية محض أم حقيقة واقعية. من هذا المنطق والمعنى، يجب أن يكون هناك إيمان في البداية، ولكنه إيمان يعترف بالكرامة أولاً وثم بنطاق العقل.

لا يمكن للإنسان أن يفصل بعد الآن بين الفكر والحياة، عندما يطرح على نفسه الأسئلة الجوهرية الكبرى. القرار بالنسبة لله هو أيضًا فكري ووجودي، وفي الوقت نفسه يكتشف كل منهما الآخر بعلاقة صداقة متبادلة.

صوّر القديس اوغسطينس هذه العلاقة بشكل دراماتيكي، في قصة اهتدائه وإيمانه، وكيف قاده النموذج المضلل والسيء إلى حياة مادية فوضوية وعادات سيئة، وإدمانات وقيود وانحرافات قادته إلى عمى البصيرة وقساوة القلب. حاول كثيرًا الخروج من دوامة الفوضى والموت ويبحث عن خلاص ينقذه، ويهتدي إلى السلام والحرية، إلى الله الذي لا يزال يعمل. ويشبّه حالته مثل شخص تحت تأثير كابوس يتعثر في الظلام، يحاول أن ينهض في كل مرّة لكنه يقع أكثر فأكثر في أعماق هاوية الظلام ويغرق في الأوهام. هو يعترف كيف كان يختبئ خلف ماضيه التعيس، وكيف أنقذه الله وأخرجه من عزلته ومكان اختفائه إلى عالم الوجود والأصدقاء والفرح. يواجه ذاته وينظر إلى وجهه بفخر لأنه على شبهه ومثاله. هناك انقلاب وتغيير جذري، خلاص يرافقه ويعطي المعنى لحياته، يفتح عيونه إلى أفق واسع رحب وولادة حياة جديدة وشركة حبّ مع الربّ.

لهذا السبب اهتمت الكنيسة الأولى كثيرًا بتفاصيل المهتدين الجدد إلى الإيمان المسيحي، فكانت ترافقهم وتساعدهم في رحلة فكرية وروحية عميقة، من خلال الموعظة والتعليم والإرشاد، تنمي وتنضج فيهم خبرة ووعي عميق. يرون واقعيًا ابن الله، يسمعونه ويلمسونه ويتغذون بكلمته ويتنفسون حقيقة حياة الروح القدس. يتعرفون على عقيدة الحقيقة، لكي

يكتشف المؤمن حلاوة وجمال الإيمان، وينمو بخبرته باطنيًا وفكريًا ولأن الطريق إلى الهدف لن نبلغه بسهولة، فبقدر ما نعطي نكون، وبقدر ما نرجو نصير.

أين تقيم؟ في عصرنا الحاضر بالتحديد، نحتاج إلى أساليب تعليم مسيحي جديدة وحديثة، علامات طريق تؤدي إلى الله ويسوع المسيح. ويعني بلغة الإنجيل، أن نمشي خلف المعلم، نعرف أين يسكن وأين يقيم؟ جوابه كان دائمًا واضحًا وبسيطًا **"تعالا معي تريان"** (يوحنا ١:٣٨). أعطى التلاميذ شهادة حيّة حقيقية عن يسوع أكثر من عامة الناس لأنهم اقتربوا منه كثيرًا، أكلوا وشربوا معه، فامتلأوا نعمة وبركة وحكمة، تكلموا بلغات مفهومة، وساروا في طريق السماء وآمنوا أن ليس هناك حب أعظم من حبّ من يبذل نفسه في سبيل أحبائه.

قصة الكهف: من الأفضل أن نستعين بقصة الكهف لأفلاطون، لتقودنا إلى الخروج من كهف هذا العالم الذي نظنه كلّ الحياة، حيث يعتقد المسجونون في الكهف المظلم أنّ ما يرونه من ظلال على الحائط هو حقيقة الأشياء، لكنه في الواقع مجرد ظلال وانعكاسات للأشياء وليست الأصل والحقيقة. لم يختر أفلاطون حكاية الكهف اعتباطًا، فهو يريد القول إن الكهف رمز للظلمة والأنغلاق، العزلة ومحدودية المعرفة، يشير إلى عدد كبير من الكهوف التي يحملها الإنسان في داخله ويحتاج إلى من يحرره منها، مثل كهف العشيرة والقبيلة والعادات والتقاليد، كهف المجتمع والسوق، الجشع والطمع، وكهوف كثيرة بأشكال متنوعة تختبئ في وعي الإنسان الباطني. حكاية الكهف لها بعد ومعنى عميق، وأفلاطون يريد أن يبيّن الفرق بين المعرفة العميقة والواعية وبين السطحية المجردة. نحن اليوم أسرى الزمان والمكان والأفكار المشوهة والمفاهيم الخاطئة التي تعودنا عليها وأصبحنا عبيدًا مخدوعين مقيدين بها. نحتاج الخروج من الكهف لنرى الحقيقة على أصولها وجوهرها الرائع.

"ما من أحد رأى الله إلاله الأوحد الذي في حضن الآب، هو الذي أخبر عنه" (يوحنا ١:١٨)، هذه هي الحقيقة: لا أحد رأى الله غيره، كل الرؤى السابقة للشخصيات المستنيرة والعظيمة في تاريخ الديانات، تبقى رؤى من بعيد، صورة ظلال. الله فقط هو من يعرّف نفسه

ويرى الألوهة، لذلك من هو على شكل الله فقط يستطيع أن يخبرنا كل شيء عنه، ويزيل كل غموض وظلال عن العيون لكي تسقط القشور ونبصر بهاء وجمال الحقيقة.

ما فائدة الجمال إذا بقينا بعيدين وغريبين عنه؟ نكتشف الآن الفرق الكبير بين ما قاله الابن وبين ما قاله الآخرون من المتنورين عن الله والإنسان، الابن فقط يرى الله بوضوح ويقول لنا "أنا هو الطريق والحق والحياة". بينما الآخرون يلتمسون الظلال من بعيد ويشيرون إلى جانب الطريق وليس إلى الطريق نفسه. الأكثر من ذلك هو أن الله والانسان، الخالق والمخلوق، الأبدي والفاني، يتحدان معًا في شركة حب مقدسة من خلال الرب يسوع المسيح. أخيرًا وجد الإنسان له مكانًا في حضن الله الآب!

المسيح وحده يستطيع أن يتجاوز المسافة اللامحدودة بين الخالق والمخلوق، وهو في الوقت نفسه الله والإنسان معًا، صار جسرًا حقيقيًا يعبر ويصل إلى الآخر، هو للكل وليس من أجل فئة معينة، هو واحد كما الحقيقة واحدة ومتاحة للكل، هو جسر من الله وإلى الله، من الإنسان إلى الله بواسطة الرب يسوع المسيح. كم الفرق كبير بين جسر عائم ومربوط بحبال، وبين جسر متين ومحكم، مسنود بدعائم قوية، أمينة وثابتة إلى الأبد.

٣/٤ الصواب إلى الأنجلة

قد يتبادر إلى الاذهان السؤال المهم الآتي: أليس من المفروض التحدث عن الحقيقية في أمور الدين؟ ناهيك عن الإدّعاء بأن أحدهم يملك كل الحقيقة، الحقيقة التي لا تلغي ولا تبطل ما يعرفه الآخرون عن الحقائق الأخرى، بل تجمع القطع المتناثرة والمكسورة وتربط بعضها ببعض لتشكل وحدة متكاملة؟

هناك تحدّ كبير يواجهنا اليوم وهو تعصب وغرور من يعتبرون أنفسهم مؤمنين ويمتلكون كل الحقيقة، هذا النوع من البشر يصعب فتح حوار جدي وحضاري معهم (لا أحد يمتلك كل الحقيقة). الحوار يجب أن يدور حول البحث واكتشاف الحقيقة فقط. لكن هناك سؤال آخر: ما هذا البحث الذي لا يصل إلى نتيجة نهائية؟ هل هناك رغبة للبحث؟ أم هناك إصرار

على عدم المعرفة والبقاء في الظلال؟ لأن ما يوجد أصلاً ليس من المفروض أن يوجد؟ ألا يعتبر تشويهًا وانحرافًا فكريًا إلى حدّ الهزل لمَن يدّعون أنهم وحدهم يمتلكون الحقيقة؟ **الحقيقة ليست للتملك،** علاقتي بها تقتصر على قبولها بتواضع بالرغم من أني قد أعرّضها للخطر، يعني أن أقبلها هدية مجانية بلا استحقاق ولا أتمادى وافتخر وأتكبر كأنما هي لي وحدي. وإذا أُعطيت لي فهي نعمة وبركة، مسؤولية كبيرة تضعني في خدمة الآخرين حولي.

إيماننا يقول: "إن التباين وعدم التشابه بين ما نعرفه والواقع الحقيقي، هو دائمًا أعظم بكثير من التشابه". مجمع اللاتيران الرابع الذي عُقد في روما عام ١٢١٥، ناقش قضايا عديدة منها (طبيعة الله في المسيحية). بالرغم من ذلك، هذا التباين اللامحدود الأزلي لا يحوّل المعرفة إلى جهل، ولا يحوّل الحقيقة إلى باطل. بل ربما علينا أن نصوغ السؤال بالشكل الآتي: هل يمكن الافتراض أن الله لا يستطيع أن يعطينا الحقيقة كهدية؟ ولا يستطيع أن يفتح عيوننا؟ أليس هكذا كلام نوع من الازدراء والاهانة له؟ وأننا نولد عميان والحقيقة لا تهمنا؟ ألا يحط هذا الافتراض من قيمة وقدر الإنسان وشغفه بالتماس وجه الرب؟ أم أن الإدعاء بأننا مجرد بشر ضعفاء نبحث عنه، يجعلنا ندور في حلقة مفرغة وظلام دامس إلى الأبد؟ هكذا تجري الأمور عندما نصرّ **(نحن)** وأركز على نحن وحدنا، عندما نأخذ مكان الله ونقرر من نحن، وماذا يجب أن نعمل، وكيفما نرغب ونشاء، بملء إرادتنا ونقبل كل ما يعرضه العالم علينا! علمًا أن المعرفة والبحث لا يستبعد أحدهما الآخر.

في كتابات **غريغوريوس النصيصي واوغسطينس** مقاطع رائعة تعبّر عن عظمة وأزلية الله، وأن كل محاولات بحثنا لاكتشاف وجهه تقودنا إلى فرحنا وسعادتنا في رحلة لا تنتهي إلى حيث الجمال الحقيقي، والنعمة والبركة. هي مغامرة حب أزلي تنتظرنا كجواب لعطش وجوع الإنسان الذي يسمو ويرتقي إلى السماء والأبدية.

الإيمان بيسوع: طبعا بالنسبة لغير المسيحيين، نقول: إيماننا بيسوع المسيح ليس مجرد إيمان بنبي أو بأحد الحكماء المستنيرين أو الفلاسفة، لأنه **(ابن)**، الكلمة نفسها، وكل الاستنارات والكلمات الاخرى تبقى ثانوية جانبية وناقصة.



لقد بقينا أمينين للكلمة التي أُعطيت لنا هدية مجانية، واحتفظنا بها ولم نستثمرها مع الآخرين "**مجانًا أخذتم ومجانًا أعطوا**". اختارنا الله من أجل الآخرين، والكل من أجل الواحد للآخر. معرفتنا بأننا رسل متواضعين. بلا استحقاق وكل هذا هو فقط من كرمه وجوده ونعمته، لا لنعلن عن أنفسنا، بل لنعلن بخشوع وخضوع مقدس كلمةً ليست منّا ولا ملكنا، بل هي من الله وللكل. هكذا فقط تصبح رسالة الإنجيل مفهومة وواضحة، بدون أن نلغي هوية الآخرين أو الاعتماد على ثقافتنا وفكرنا الخاصّ، لأنها ليست استعمارًا ولا احتلالاً روحيًا، بل تستوعب وتحتضن، تربي وتسند، تنمي وتغني، تخلص وتحفظ. هكذا كانت مهمة الرسل في الكنيسة الأولى، وكذلك نجدها في خطابات يسوع الوداعية. يتطلب العمل من المرسل الاستعداد للشهادة، أن يخسر نفسه من أجل الحقيقة ومن أجل أحبائه الآخرين. ولكي تصل البشرى السارة ويؤمن كثيرون، هنا تكمن صعوبة المهمّة المناطة بنا، لأنه قال: من لا يحمل صليبه ويتبعني فلا يستحقني. هكذا كانت منذ البداية وستبقى كذلك إلى النهاية.

الويل لي إن لم أبشر: يا ترى هل سيقبل المسيحيون أن يعطوا الأولوية للحقيقة والكلمة لكي نتجاوز كل الفرضيات والأفكار الأخرى؟ ليس للحقيقة أسلحة غير إمكاناتها الذاتية. من يؤمن، يجد اللؤلؤة ويبيع كل شيء من أجلها، حتى نفسه! لأنه يعرف أنه من خسر نفسه فقد وجدها، ولأن حبة الحنطة إذا لم تمت فلن تعطي ثمرًا كثيرًا. من يؤمن ويجد الحب الإلهي، عليه أن يمرر بدوره الهدية إلى الاخرين حوله، لأنها تنشر السلام والفرح وتحترم الثقافات والهويات والأعراق وكل الألوان، تحرر وتطلق الطاقات المسجونة في داخل الإنسان. من يذق طعم المحبة والفرح يتحمل المسؤولية، وكما يقول الرسول بولس: "**فإذا بشرت فلا فخر لي، التبشير ضرورة فرضت عليَّ، الويل لي إن كنت لا أبشر**" (**١كو٩:١٦**).

قبل الرسول بولس بمئات السنين، تكلم النبي إرميا بنفس المعنى قائلاً: " **كلما تكلمت صرخت وناديت بالويل والدمار حتى صار كلام الرب عارًا ومهانةً ليل نهار، فإن قلت لن أذكر الرب ولا أتكلم بأسمه من بعد أحسست بنار محرقة محبوسة داخل عظامي أحاول كبتها فلا أقدر**" (ارميا ٢٠:٨-٩).

استثمار الكنز: لابدّ أن نفهم المعنى من حكاية الخادم الخائف من سيده في مثل الوزنات، حيث دفن مال سيده وأعاده إليه كما هو بدلاً من استثماره، كما فعل زميلاه. فيقول له سيده: "**أيها الخادم الكسلان والشرير، كان عليك أن تضع مالي عند الصيارفة، وعندما أعود استرده مع الفائدة... خذوا منه الوزنة وادفعوها لصاحب الوزنات العشر، وهذا الخادم الذي لا نفع منه أخرجوه خارجًا في الظلام، حيث البكاء وصريف الأسنان**". هنا يكمن القصد والتحدي الذي يواجهنا: **استثمار الكنز وعدم دفنه في التراب**، لأنه حياة جديدة، وخميرة في عجين العالم لكي يصبح أكثر فائدة ويذوق طعم الفرح الحقيقي.

من له أذنان سامعتان فليسمع: نحن اليوم مشغولون بدفن الكنز في التراب خوفًا من الخسارة، نتهرب من المسؤولية، هناك فوضى وضجة عارمة، تحديات تاريخية، كسل وضعف في الإيمان وربما عدمه. لا أحد يريد أن يضحي ويصبح شمعة تنير درب الآخرين، نريد أن نقود أنفسنا حسب مشيئتنا ورغباتنا، كما يحلو لنا، ولا نزعج أنفسنا بحمل الصليب. رغم كل ذلك هدية الحب الإلهي تنتظر إلينا، تنادينا من خلال جروح المسيح يسوع على الصليب، لعلها تحفزنا لكي نهتدي ونضع قدمنا على الطريق، ولكي ترى كل الأرض خلاصه، "**تذكر الرب رحمته، وأمانته لبيت اسرائيل، فرأت جميع شعوب الأرض الى أقاصيها خلاص إلهنا**" (مزمور ٩٨:٣) وأيضًا (اشعيا ٥٢:١٠): "**كشف عن ذراعه المقدسة، على عيون الأمم جميعًا، فرأت جميع أطراف الأرض، خلاص إلهنا**". الله لا يفرغ فينا مواهبه جزافًا، ولا يدفعنا إلى الكمال قسرًا، بل يضعنا على الطريق، ومن له أذنان سامعتان فليسمع.

٤/٤ موقف الإيمان بالمسيح من خلال الدين وتاريخ الفكر:

خلق الكلمة الإنسان، لكنه لم يتركه وحده ضائعًا في عالم لا يعرف عنه شيئًا، بل أرسل شعاع نور محبته أمامه ليوقظ شوق الإنسان إلى الحقيقة. يقول يوحنا (١:٩): "**هو النور الحق جاء إلى العالم، لينير كل إنسان، وكان في العالم وبه كان العالم، وما عرفه العالم**". عن هذه العلاقة تحدث آباء الكنيسة، عن (**بذور الكلمة**) التي وجدت قبل المسيحية. وهذا المبدأ أصبح الفكرة المركزية لتحديد العلاقة الصحيحة بين الإيمان المسيحي وديانات العالم. ولو تحققنا عميقًا عن هذا المبدأ سنجد مفاجأة غير متوقعة، وسنتغاضى تقريبًا عن كل

الدراسات الأخرى ذات الصلة. وجد آباء الكنيسة بذور الكلمة في الأسلوب الفلسفي والفكر النقدي السائد آنذاك، وليس في ديانات العالم الوثنية. ومن خلال الفلسفة وصلت رسالة الإنجيل، عن طريق تاريخ التطور الفكري وليس عن طريق تاريخ الديانة. اكتشف آباؤنا الأوائل إفلاس الإنسان في العادات والتقاليد والأعراف البالية المنتشرة قبل المسيحية وعدم نجاحها في تعريف الحقيقة للإنسان وتوصيل الكلمة له، وعملت على استغلال قوة الفكر والجدل الفلسفي لإيصال مفهوم العالم والله والناس. لذلك لم يربطوا المسيحية الأولى بعالم الديانة، ولم يعتبروها واحدة من ديانات كثيرة منتشرة في الساحة، بل ربطوها ضمن التطور الفكري والحكمة والحماس نحو التجديد والتطور والتغيير.

يجب أن نلاحظ أن مصطلح (الديانة) ونضعها بين قوسين، التي نستعملها اليوم للتعبير عن الظاهرة الأكثر تنوعًا، وبضمنها الدين المسيحي، والتي تطورت حديثًا فحلت وشرحت إشكاليات عامة وتساؤلات وشكوك كبيرة. لا يوجد طريق آخر للاقتراب من الإيمان المسيحي الفريد وموقفه في تاريخ الفكر الإنساني إذا تجاوزنا هذه الحقيقة. **بذار الحقيقة منثورة في كل الأجيال والدهور.**

إن الفكر ينقد الدين في بحثه عن الحقيقة، والمسيحية في جذورها وأصولها تؤيد الفكر وهو حليفها والمبدأ الرائد والمبشّر للحقيقة. هذا لا يعني أن نعتبرها فلسفة ونقارنها بالأديان الأخرى، مع العلم أن المسيحية تصف نفسها بالفلسفة الحقيقية، وهي إحدى العناصر الرئيسية والجوهرية التي خدمت الكنيسة الأولى.

بالرغم من ذلك، كان الفيلسوف السويسري **كارل بارث** مخطئًا في قوله إن المسيحية ليست لها علاقة بالدين، هنا كانت بداية الانحراف الذي مهّد (لمسيحية بلا ديانة)، وفي نهاية المطاف إلى (موت الله). بالعكس استطاعت المسيحية التواصل الجاد مع ديانات العصور القديمة، في أشكال العبادة والطقوس، وهيكلية الليتورجيا والنشاط الرهباني، وساهمت في تطوير وتجديد واحتضان العقائد والعبادات مع الحفاظ على الأصالة لتنسجم مع الإيمان المسيحي.

عذراء كوادلبي: خير دليل على هذا الانفتاح هو صورة السيدة العذراء كوادلبي التي ظهرت في المكسيك وأصبحت رمزًا وطنيًا وشعبيًا مشهورًا. رفعوا صورها على رايات المحاربين، مع العلم أنها كانت في الأصل رمز الإلهة الأم المحاربة في حضارة المكسيك القديمة، ولقد تم استيعاب الرمز واحتضان الصورة لتصبح أم الرحمة والمحبة والسلام. لم تعد بعد الإلهة القديمة، فوجهها مكشوف ولا تلبس قناعًا بعد الآن. استمرت هذه الفكرة في التطور بشكل أعمق وأعظم، لتشمل الشمس والقمر والنجوم. هي الآن أعظم من كل الآلهة الوثنية والمحلية القديمة، تغطي الشمس بدون أن تحجبها أو تطفئها، وهي أقوى من القمر لأنها تقف عليه دون أن تدعسه بقدميها. كل ثروة وغنى الديانات القديمة توحد وتحول وتوجه إلى جذر وأصل جديد، إلى سمو ومعنى وجمال عميق ليس له نظير. تقف فوق كل الأديان دون أن تؤذيها، بل تحتضنها، تنميها وتطورها لتنسجم مع حياة الإنسان الجديدة. صورة السيدة كوادالبي رمز للعلاقة بين المسيحية وديانات العالم القديمة الأخرى، تحترم وتقدر كل التيارات وتسير معهم بخط متواز، تنفتح وتنمي، تربي وتحتضن، تنقي وتطهر، تعلم وتبني، تهذب ولا تهدم، تبعد كل شيء سلبي ولا تقاطع أحدًا. كل شيء يتطور ويتطهر ويتجدد وإلا غرق المقدس في طقوسية فريسية ونتنيه في أشكال عادات وقوالب جامدة بعيدة عن الإيمان. إن مضمون الإيمان في جوهره واحد لكن التعبير عنه متنوع، فالله لا يختزل رحمته بشكل واحد لكل البشر. ولكن هي صورة عن علاقة حقيقة يسوع المسيح مع حقائق الديانات الأخرى، لأنها توحد وتجمع ولا تفرق.

لا تنتمي المسيحية إلى الديانات التاريخية القديمة، ولا إلى تاريخ النقد الديني، ولا إلى تاريخ الفكر المتعصب والمكتفي بذاته. ففي مناقشات الآباء حول واقعية ومنطقية المسيحية، يميزون فيها بين الفكر الأحادي المجرد وبين الفكر الإنساني المنفتح والقادر على رؤية واكتشاف المعاني الروحية العميقة. وهنا يكمن سرّ وحكمة وجوهر الإيمان المسيحي الذي يتفاعل مع الفكر المادي الضيق ويدعوه إلى رؤية الجمال والحقيقة بعيدًا عن الحدود المادية والسطحية.

هذه هي سمة الإيمان المسيحي، يبني علاقة قوية بين الفكر والدين ليرى الإنسان الصورة الكاملة بوضوح ويحيا الفرح السماوي. لا يسمح بتكرار العادات والتقاليد القديمة والسلبية، بشكلها المجرد الخالي من المعنى، بل يوجهها لتحقق مشيئة الخالق ووصاياه. لهذا لا يقول إن على كل واحد أن يعيش حسب الديانة والعادات والتقاليد التي وجد وولد فيها، ما دام لكل منها طريق وفكر وأسلوب **(خلاص)** خاص به! وإلاّ يصير الدين مجرد إدمانات وعادات اجتماعية مألوفة، بعيدة كل البعد عن أصل الحقيقة. ويصبح الدين في النهاية في خانة الفكر النفسي وظواهر علم الاجتماع، أي مجرد أفكار ذاتية وطقوس ومراسيم اجتماعية تبقى عاجزة وقاصرة عن كشف سرّ الوجود والإجابة عن الاسئلة الجوهرية التي تواجه كل إنسان.

عدم فهم جوهر الدين بشكله الصحيح لايخدم أحدًا ولا يوحّد الناس بل يفرّق ويقسّم، يسجن ويقيد الجميع كلّ واحد في مكانه التقليدي، ونبقى ندور في دائرة مغلقة من الظلام إلى الأبد.

يقظة روحية: كان هناك في اسرائيل رجال لم يرضوا أن يبقى الوضع على ما هو عليه، لم يكونوا راضين عن العادات والتقاليد السائدة هناك. قلوبهم كانت توخزهم وتؤنبهم، تبحث عن شيء أعظم وأعمق، فتعاونوا معًا وانطلقوا لاكتشاف طريق الحقيقة. على سبيل المثال: مريم واليصابات والاثنا عشر الذين غيّروا مجرى التاريخ كما يذكر العهد الجديد. الخلاص واليقظة الروحية أصبحت ممكنة من خلال الإيمان المسيحي.

كنيسة الأمم الوثنية: وصل المبشّرون إلى حوض البحر الأبيض المتوسط ومناطق الشرق الأوسط، وبدأوا العمل الدؤوب هناك. كان الناس هناك أيضًا غير راضين عن أوضاعهم الراهنة، ينظرون إلى السماء والنجوم عسى أن تدلهم إلى مخلص حقيقي لمعاناة العالم، فكانت البشرى السارة، وتحدثوا معهم عن المخلص الوحيد والفريد يسوع المسيح الذي كله محبة وخلاص وفداء. المسيح لا يضمر أي ضغينة إلى الأديان الأخرى، بل بالعكس هو من أجل الكل، حتى لفاقدي الرجاء، للذين يقولون لا يمكن أن يتعلّم الإنسان الحقيقة! الرسالة المسيحية تستجيب لنجواك، للخروج من المأزق الذي طال، وتصل للقلوب المشتاقة

إلى التغيير والتجديد، إلى كل الباحثين بلهفة وحب عن حياة حقيقية تفيض لبنًا وعسلاً. فكان العمل الجاد والمستمر لتعود المياه إلى مجاريها، ويصبح البيت مقدسًا وقابلاً للسكن.

هذا الكلام يشملنا نحن مسيحيي العصر الحاضر، علينا ألاّ نرضى بالبقاء تقليديين، محافظين، خائفين من التجديد، علينا بالتجدد المستمر كل يوم وساعة ودقيقة لأن الحقيقة ناصعة متجددة دومًا، وخطر السقوط لا يمنعنا من المشي لاكتشاف الحقيقة.

المسيح والكنيسة: حاولنا في الفصول السابقة توضيح أصالة ومسكونية المسيح المخلص الشامل لكل البشر، ولهذا الموضوع شقّين، ونضيف إليه الكنيسة بما ينسجم مع إعلان وثيقة بعنوان (الرب يسوع) عن مجمع العقيدة والإيمان. لذا سنكرّس هذا الفصل للكنيسة وهذا يتطلب الذهاب خارج حدود الزمن، وربما هذا يساعدنا في الفهم أكثر. وبعد التعرف وقبول يسوع المسيح عن قرب، يظهر الطريق إلى الكنيسة ويصبح واضحًا ومضمونًا بصورة مباشرة. ولكن إضافة فصل بعنوان الكنيسة إلى وثيقة (الربّ يسوع) لمجمع العقيدة والإيمان، جرى انتقاده بشدّة ولمراتٍ عديدة؛ إذ رأى البعض أنه نوع من الفشل المسكوني بل وصفوه (تحطم القطار المسكوني). رغم ذلك فإن من يتحدث عن يسوع المسيح الذي جلب الخلاص لكل البشر، لكل زمان ومكان، لا يستطيع أن يبقى صامتًا، لابدّ له أن يتحدث عنه لأنه حاضر الآن في حياتنا وليس فقط في الماضي. هذا الحضور المسيحاني يسمّى الكنيسة: الكنيسة تؤمن بأن المسيح يحقق وعوده الخلاصية دائمًا لأنه قال: "**ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر**" (متى ٢٨:٢٠)، هذا (**الوجود مع**) يظهر دائمًا بطريقة ما، يتجسّد ويجمع الناس باستمرار من خلال حضور مادي حقيقي، لانه ليس مسيح الأمس فقط بل **مسيح اليوم وغدًا وإلى الأبد** (عبرانيين١٣:٨).

لكن بالرغم من حضوره المتفرع والمتنوع في المؤمنين به، يبقى جسدًا واحدًا. هذه الوحدة ليست مشابهة لفكرة المدينة الفاضلة لأفلاطون، أو فلسفة الأواخرية، بل حضور حقيقي مادي في التاريخ نفسه (**الكرمة والاغصان**). هذا يعني أن كل خلاص هو منه وبه ومعه، يحصل بطريقةٍ ما والكنيسة عروسه لا تنفصل عنه، بل تشترك معه في كل عمل

مسكوني، لأنه هو كله عمل وتعليم، والكنيسة أم ومعلمة، وكل علاقة به ومعه تشمل الكنيسة أيضًا.

نختم الموضوع بترتيلة الصلاة المسيحانية العظيمة، ومن الرسالة إلى كولسي (١:١٢-١٥) التي يدرك فيها العالم رحمة المسيح وخلاصه من خلال ألوهيته وإنسانيته التي يذكرنا الرسول بولس بها فيقول: "**شاكرين الأب لأنه جعلكم أهلاً، لان تقاسموا القديسين ميراثهم، في ملكوت النور، هو الذي نجانا من سلطان الظلام ونقلنا إلى ملكوت أبنه الحبيب، فكان لنا به الفداء أي غفران الخطايا**". كذلك الرسالة الثانية للقديس بطرس تقول: "**انموا في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح، له المجد الآن وإلى الأبد، آمين**".

"لا أحد يكون الله أباه، ولا تكون الكنيسة أمه" (التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، ١٨١).

الفصل الخامس

البحث في تجارب المسيح على الجبل

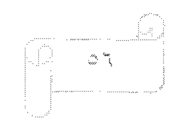
٥/١ فكرة أولية عن أهمية سنة اليوبيل ٢٠٠٠

في بداية عام ١٩٧٨ أصدر البابا يوحنا بولس الثاني، رسالة بعنوان (فادي الإنسان، redemptor hominis)، تحضيرًا للاحتفال بيوبيل ميلاد الرب يسوع عام ٢٠٠٠ واعطائه الطابع الروحي العميق. وفي عام ١٩٩٤ أصدر رسالة رسولية بعنوان (إطلالة على الألف الثالث) من أجل اليوبيل. وأخيرًا صدرت الوثيقة الرائعة بعنوان (الألفية الجديدة) (novomillennio ineunte).

كل هذا ليبين أهمية سنة اليوبيل، لأن معنى الاحتفال به كان منسيًا نوعًا ما. هل يقول لنا اليوبيل شيئًا اليوم؟ قدّمتُ التاملات الآتية قبل ستّ سنوات للإجابة على هذا السؤال والتهيؤ للاحتفال المقدس العظيم. لتساعدنا في فهم عميق لمعنى الرسالة التي يحملها الاحتفال المسيحي الذي نسميه باليوبيل (السنة المقدسة)، تقترح الوثيقة الثالثة (الألفية الجديدة) ضرورة تجديد الذاكرة وتنقيتها وتطهيرها، ليظهر شيء جديد معاصر وتنفتح أبواب المستقبل من زمن إلى زمن، إلى الأبدية، ويصبح الحدث ملموسًا وعمليًا واقعيًا. من خلال الذاكرة فقط، يبقى الزمن متماسكًا وملتحمًا بالحاضر رغم مرور عقود وقرون كثيرة عليه.

نحتفظ بالماضي في الذاكرة وكأنه هنا اليوم، يا ترى ماذا تقول لنا ذاكرتنا اليوم؟ الذاكرة تجمع وحداتٍ صغيرة وكبيرة من الزمن، فزمني (الآن) زماننا نحن (اليوم) لنتمكن من خلالها أن نخطط للمستقبل ونتّخذ قرارات تتعلق بما سيحصل لاحقًا.

تعتمد إمكانيات الإنسان للتعامل مع المستقبل على نوع وعمق جذوره، استيعابه وامتداداته، كم هو قادر على هضم واستيعاب الماضي، وتشكيل معيار مناسب ليتواصل ويقيم الحدث، فالذاكرة قد تكون مريضة ومشوهة بالحقد والكراهية، مسمومة بالتعصب



الأعمى وخيبة الأمل، بالوهم المغلف بالكذب الملون، في هكذا حال يصبح المستقبل غامضًا ومبهمًا!

حقيبة الذكريات: قد تكون الذاكرة سطحية وقصيرة النظر، ساذجة تسرح في خيال مجنح، تصدق التكرار الباطل، تشوّش الرؤية فيصبح المستقبل أيضًا في خطر! وبناءً على كل ما سبق، من الضروري أن ننقي ونطهر الذاكرة، نحرّك المياه الراكدة باستمرار لكي تتجدد وتصبح صافية شفافة تمكننا من رؤية قاع البحيرة، نسمح لشعاع الشمس أن يصل إلى أعماق الذات ونكتشف النور الحقيقي.

هذا هو المغزى من الاحتفال باليوبيل المقدس: نعيد النظر في الماضي، نراجع ملفات حساباتنا، نقيّم المسافة التي قطعناها، أسباب وجودنا واتجاهات خطواتنا وخارطة الطريق الذي نسلكه.

تقويم التاريخ: إنّ الأنظمة الإلحادية التي لا تريد التحدث عن المسيح، ولا تستطيع بل تعجز عن تجنب التقويم الغربي، استبدلت عبارات مثل قبل الميلاد وبعد المسيح، لتقول: قبل عصر الاشتراكية وبعد الاشتراكية... الخ. هنا نثير سؤالاً: ماذا حصل لنقطة التحول هذه؟ كيف حصل التغيير في مجرى التاريخ؟ كيف ابتدأ العهد الجديد من تلك اللحظة؟ كيف انتقل حساب الزمن بعدما كان يعتمد على تأسيس روما والألعاب الاولمبية أو هل هذه البداية التي حصلت قبل ألفي عام، منذ خلق العالم، مهمة بالنسبة لنا؟ هل أخذت مكانها الصحيح لتحفظنا وتخلصنا؟ ماذا تقول لنا اليوم؟ ربما أصبحت لا تعني شيئًا سوى تقويمًا لحساب التاريخ؟ أو ربما مجرد تقليد سائد نحافظ عليه لأسباب براغماتية؟ يا ترى إلى أين تتجه بوصلة تاريخنا اليوم؟ هل نحن مثل سفينة تاهت في أعماق البحار ليس لها وجهة معينة؟ تحاول أن تجد ميناءً في مكان ما لترسو إليه بسلام.

هذا السؤال على أية حال يخص المسيحيين فقط، يجعلنا اليوبيل نتساءل مرة أخرى: ما هو السرّ الغامض الذي ترك بصمة وعلامة فارقة لا تُمحى وغيّر مجرى التاريخ إلى ما قبل وبعد المسيح الذي نحتفل بميلاده اليوم. في المقام الأول حياتنا التي نحياها، والهدف

والطريق الذي نحن سائرون إليه، نؤمن بأن المسيح هو البداية وهو كذلك، لكن هذا لا يعني أن كل شيء صار في الماضي البعيد.

كان هذا الانطباع سائدًا لتبدو المسيحية كأنها ديانة من الماضي، لاعتقاد خاطئ يقول إن كلّ ما حدث في الماضي هو المعيار وكل ما يأتي لاحقًا مجرّد تسليط ضوء على شيء مضى. كانت هذه الفكرة المغلوطة حول (الوحي) شائعة وخصوصًا بعد موت كل الرسل، وهذه الرؤية أدّت بالنتيجة إلى ضعف وضمور الحضور المسيحي الفاعل في العالم.

الوحي ليس مجرد اتصال خارق حصل في زمن المسيح وحياته الأرضية لعدد من المرات وانتهت بعد موت آخر الرسل! هكذا أفكار تجعل من الإيمان يعتمد على مجرد بناء فكري وعلاقة بالماضي، وليس له صلة بالحاضر. هذه رؤية تاريخية مستعارة وزائفة. فالوحي ليس خطبًا وتكرار مواعظ وأحداث تاريخية، لأنه هو نفسه يسوع المسيح الحاضر معنا وبيننا، الكلمة التي كشف بها الله نفسه لنا، والكلمة هو الفعل ولذلك نسميه ابن الله، يتواصل معنا بمعيار الكلام والكلمات، به ومن خلاله ومعه اكتشفنا محبته وخلاصه وفرحه الأبدي بوضوح.

الكلمة أعظم من كل الكلمات، لا يضعفها بل تأخذ قوتها من الكلمة الإلهية وتصبح قادرة على التواصل والنمو والعطاء أينما زرعت، في كل الاجيال التي تقرأ الكلمة، كما يقول البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠م). من هذه الرؤية والمفهوم العميق للمسيحانية نفهم عمل الوحي الإلهي، في يوحنا (١٢:١٦) يقول بوضوح: "**عندي كلام كثير أقوله لكم بعد، لكنكم لا تقدرون الآن أن تحتملوه، متى جاءكم روح الحق، أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما سيحدث، هو سيمجدني لأنه يأخذ كلامي ويقوله لكم، وكل ما للأب هو لي، لذلك قلت لكم: بعد قليل لا ترونني ثم بعد ذلك بقليل ترونني**".

يطوّر إنجيل يوحنا فكرة أولية عن لاهوت الذاكرة، لأن الذاكرة ليست مجرد معلومات تخزن بشكل آلي جامد مثل الحاسوب، بل أكثر وأعمق وأعظم من ذلك، لأن ما تعرفه عن

الماضي يعانق ويلاقي الحاضر وكل ما هو جديد بشعاع من النور يضيء الطريق إلى الحياة الحقيقية. وما كان غامضًا يصبح واضحًا ومفهومًا، وكلّ الاشياء تتجلى وتنمو وتزدهر وتعطي ثمرًا وفيرًا. فنكتشف الكلمة بصورةٍ أعمق كل يوم، هو نفس الوحي يظهر لنا ذاته كاملاً جيلاً بعد جيل، يكشف السر الالهي، تسقط القشور من العيون وتتفتح الرؤية كما حصل في قصة اهتداء شاؤل في سفر أعمال الرسل (٤:٩). الوحي يعيش حياته من جديد في كل لحظة حاضرة بيسوع المسيح، الله أعطانا ابنه وكلمته وذاته كلّها، ولم يبقي أي شيء له، وهو لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك. **بذور الكلمة** منثورة في كل زمان ومكان ولكل البشر.

مارن أثا: هكذا هو الوحي الالهي، لأنه كلمة الله نفسه، وكل الكلمات تعود إليه، لذلك لا يصبح في الماضي أبدًا، هو في الحاضر وامتداد المستقبل، هو الصباح المشرق الذي بنوره نرى النور في طريق حياتنا نحو الأبدية. يفتح كل الأبواب والنوافذ أمامنا لنرى جمال الحقيقة التي هي أقوى من الموت. لذلك نؤمن أن المسيح أتى وسيأتي، ونؤمن بالمخلص الذي ننتظره كذلك (مارن أثا).

الرجاء الأزلي: لم يكن اليوبيل المقدس مفهومًا بمعناه الواسع والعميق، عندما ربطوه بتوقع اندلاع حروب كونية وكوارث ودمار شامل للبشرية، لكي يحصل التغيير وبداية حياة وعهد جديد. فانتهى بخيبة أمل وندم لأن هذا لم يحدث ولن يحدث أبدًا، ولقد اساءوا فهمه أيضًا عندما احتفلوا به كأنه مناسبة تاريخية وحدث من الماضي البعيد، أي إحياء ذكرى قديمة أو مجرّد مهرجان شعبي تقليدي!

الاحتفال بسنة الرب عام ٢٠٠٠ شيء مختلف تمامًا عن سابقاته لأنه يتعامل مع الأبعاد الثلاثة للزمن: الماضي والحاضر والمستقبل، إلى الرجاء الأزلي، إلى المسيح الذي أتى إلى عالمنا ونتعرف عليه أكثر لينفتح لدينا الوعي ونتحمل المسؤلية لحياتنا ورسالتنا وتاريخنا الذي كله نعمة وبركة. نكتشف رؤية تستبق المستقبل الذي ينتظرنا، نكسر باب سجن الزمن الذي نحن فيه، ونجد المدخل للباب الضيق، الطريق إلى الأبدية.

لهذه الأسباب، وجّه البابا اهتمامه لهذه الاحتفالية الكبيرة بسنة الربّ من أجل العودة إلى الإنجيل برغبة وشوق في لقاءات تتكرر كل سنة من أجل اكتشاف سرّ العماد المسيحي.

٢/٥ شخصية المسيح من خلال تجربة يسوع في البريـة:

اخترت نصّ إنجيل متى (٤:١) كموضوع للتأمل، ويُقرأ في فترة الصوم قبل عيد القيامة. لنركّز نظرنا عليه كي يطهر ذاكرتنا وينقي رؤيتنا لعلّه يحرّك فينا شيئًا جديدًا كل عام. يروي الإنجيل قصّة التجارب في البرية بعد معمودية يسوع مباشرةً، التي ترمز إلى موته وقيامته، الخطيئة والغفران والخلاص. ينزل يسوع إلى الماء في أعماق نهر الأردن، رمز الموت والحياة القديمة التي تدفن وتقوم لحياة جديدة. ولأن يسوع بلا خطيئة ولا حياة قديمة، فإنه قبل المعمودية ليشاركنا نصيبنا في الحياة، يحمل عنّا خطايانا وموتنا، ويستبق عمل الصليب. عندما خرج من الماء سمع صوت من السماء يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. انفتاح السماء علامة على الفجر الجديد في ليل وظلام الحياة، حياتنا نحن، وزوال الحواجز بين الله والانسان، المصالحة والغفران، فلم يعد الله بعيدًا وغريبًا بعد الآن، رغم خطايانا وموتنا يعود بنا إلى النور من جديد، هكذا تظهر دراما الحدث الإلهي.

هذه القصّة مرآة تكشف سرّ يسوع وهويته ونسبه ومصيره الذي سيقوده إلى الصليب والموت وعالم الأموات، لكن أيضًا هناك القيامة والصعود من مثوى الأموات، هناك رجاء يسمو به الإنسان من خلال الربّ يسوع.

قضى يسوع أربعين يومًا صائمًا في البرية، وهي تذكرنا أولاً بصوم موسى في برية سيناء، حين استلم الوصايا العشر، وتذكرنا بالتقليد الرابيني الذي يروي أن موسى لم يأخذ معه طعامًا أو شرابًا في طريقه إلى جبل حوريب، بل كان يتغذى بمشاهدة الرب ويتحدث مع الملائكة الذين رافقوه، ويذكرنا أيضًا بخروج الشعب العبراني من عبودية مصر، وخاض تجارب في البرية لمدة أربعين سنة ليمتحنهم الربّ، وكذلك فعل يسوع.

وجد آباء الكنيسة في الرقم أربعين رمزًا للتاريخ بشكل عام، لذا يمثل خروج يسوع إلى البرية كل تاريخ البشرية. والبشرية تتجاوز خطيئة آدم من خلال تجربة يسوع. والرسالة إلى العبرانين تؤكد ذلك: **"هو الذي خضع مثلنا لكل تجربة ما عدا الخطيئة"** (١٥:٤). عرف يسوع مشاكلنا وحاجاتنا الإنسانية، وعاش حياتنا وحمل خطايانا. والتجربة تعطي صورة لما يحدث في حياة يسوع بوضوح، تقول الرسالة إلى العبرانيين (١٨:٢): وبما أنه هو نفسه، قد تألم وخضع للتجارب، فهو قادر أن يعين الذين يتعرضون للتجارب، فنسب يسوع لا يمنعه من أن يشاركنا صعوباتنا وآلامنا.

بعد آية تكثير الخبز أرادت الحشود أن تنصّب يسوع ملكًا، لكنه ابتعد وعاد إلى الجبل وحده في يوحنا (١٥:٦) ويتكرر الموقف ذاته في مرقس (٣٥:١). يجري يسوع معجزات عديدة: شفاء حماة بطرس، طرد روح نجس، لكنه خرج قبل طلوع الفجر إلى مكان مقفر. مهمة يسوع الأساسية البشارة والخلاص وليست الحصول على كرسي ومنصب وسلطة. وبطرس يعلن أن يسوع ابن الله وحاول منعه من الذهاب إلى اورشليم، فقال له يسوع: ابتعد عني يا شيطان لأن أفكارك ليست أفكار الله (مرقس ٨: ٣٣). فتجارب يسوع في البرية تختصر عمله الخلاصي، وهي طبيعته ورسالته لخدمة حياة الإنسان، وهو الضروري والمهم الذي نبحث عنه دائمًا، لأن الأولوية هي لله والحاجة إلى واحد في كل عصر ومكان. الخطيئة تجعل الله يبدو كأنه شيئًا كماليًا غير مهم، وتعتبر حاجاتنا ورغباتنا أكثر أهمية منه. وهناك أنواع وأشكال مختلفة من التجارب تواجهنا كل يوم، تهاجمنا في حياتنا وتتحدانا كقوة تمنعنا وتبعدنا عن الله.

<u>التجربة الأولى:</u> الخبز والخلاص: بعد أربعين يومًا من الصوم، يسوع يجوع ويحتاج إلى الغذاء أي العنصر الأساسي لحياة الجسد، وهذا صار نقطة الانطلاق للتجربة الأولى. مع ذلك هناك شيء مخفي في طيات هذه الحاجة الضرورية لكل إنسان. "**إذا كنت ابن الله**"، نسمع هذه العبارة في التجربتين الأولى والثانية، ونسمعها عند أقدام الصليب من المتفرجين الساخرين من الرب يسوع، قائلين: "**يا هادم الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، إن كنت ابن الله فخلص نفسك وأنزل من الصليب...**" (متى ٢٧: ٤٠). صحيح أن الموضوع فيه سخرية إلى

حدّ البكاء، لكنه أيضًا تحدي، إذ يجب عليه أن يثبت صحة ادعائه إذا أراد أن يؤمنوا به. رافق هذا التحدي يسوع طوال حياته الأرضية، وواجه لوم وعتاب الناس لأنه لم يثبت نفسه وهويته بما فيه الكفاية، وعليه أن يعمل معجزات كبيرة لكي يزيل كل تناقض وغموض حول شخصيته، من هو بالضبط؟، وما دوره... الخ؟ ألا نطلب نحن الأمر ذاته من الله ويسوع والكنيسة أحيانًا ونقول: يا الله إذا كنت موجودًا، وترى ما يجري هنا، فيجب أن تفعل كذا وكذا... متى تتكشف عن وجهك كل الغيوم التي تخفي عنّا رؤيتك؟ إذا كنت حقًا ابن الله، ولست أحد المستنيرين الكثر الذين ظهروا في فترات متعاقبة خلال مجرى التاريخ الطويل، ويدّعون المعرفة الحقيقية، وإذا كانت الكنيسة عروسك حقًا، فعليها أن تتكلم بصراحة أكثر مما تفعل الآن، وتوضح كل شيء حولك بشكل أدقّ وأوضح. سوف نناقش هذه النقطة المهمة جدًا بعد قليل.

البرهان الذي يطلبه المجرّب من يسوع ليثبت نفسه هو أن يحوّل الحجارة إلى خبز! في البداية نفهمها كمسألة تخصّ يسوع شخصيًا، وتمسّ جوعه الجسدي، هكذا يراها لوقا الإنجيلي: "**إذا كنت ابن الله حقًا فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزًا**"، لكن القديس متّى يتوسع أكثر فنرى يسوع في إنجيله يواجه المجرّب طوال حياته والتاريخ كله، وهل يوجد موقف محرج أكثر من هذا؟ كيف يمكن أن يتعارض الإيمان بالله وخيره وخلاصه مع حاجة الإنسان إلى الطعام؟ ألا يجب عليه أن يبرهن عن نفسه ويعطي الخبز ليأكل الجميع ويرون فيصدقون فيضع نهاية لكل جائع في العالم؟

الخبز النازل من السماء: خلال فترة خروج شعب اسرائيل في البرية من العبودية في مصر، جاع وتذمر على موسى، فأنزل الله الخبز من السماء (المنّ) لكي يأكلوا ويثبتوا في الإيمان. كانت هذه علامة على بداية زمن المسيح. أفلا يفترض بمخلص العالم أن يفعل الشيء ذاته ليثبت موقفه؟ أليس الجوع والطعام ضرورة قصوى وأولوية في عملية الفداء والخلاص؟ هل نستطيع أن نطلق عبارة مخلص على أحدٍ دون أن تنطبق عليه معايير توفير حاجاتنا الإنسانية الضرورية؟ الماركسية فعلت ذلك، عندما جعلت من هذا العنصر شعارًا ومبدأً في وعودها لتنتهي مشكلة الجوع في العالم، وقالوا: سنحول الصحراء إلى خبز؟

إذا كنت ابن الله... عبارة فيها الكثير من التحدي، ألا نقول نفس الكلام للكنيسة؟ إذا كنتِ كنيسة الله، عليكِ أولاً أن تهتمي بالجياع وتعطي الخبز ليشبعوا ثم تأتي الأشياء الأخرى بعدها؟ هنا تكمن صعوبة الاستجابة لهذا التحدي خصوصًا أن بكاء الجياع وصراخ المتألمين يخترق الآذان وأعماق الوجود والروح. يصبح جواب يسوع غريبًا إذا لم نعود إلى الوراء، وبالتحديد إلى قصص الكتاب المقدس حول الخبز، لأن لها دور كبير في توضيح الصورة كاملة. هناك روايتان لهما علاقة بالخبز في حياة يسوع، علينا أن نطلّع على معناهما المهم: ١) معجزة تكثير الخبز: يسوع يطعم أربعة آلاف شخص جائع تبعوه في البرية بواسطة سبعة أرغفة وسمكتين فقط. لماذا يجري هنا معجزة ويرفض تكرارها عندما يجوع هو؟ نحتاج إلى توضيح لأن الناس جاءت أولاً لتسمع كلمة الرب وتركوا كل شيء وراءهم، فتحوا قلوبهم لله ولبعضهم البعض، ولذلك يحصلون على الخبز. وهنا ثلاث نقاط مهمة:

١- المعجزة تأتي بعد البحث وسماع كلمة الرب التي تدلهم على الحياة والنور والمعرفة الحقيقية من خلال يسوع المسيح.

٢- يحصل الناس على الخبز عن طريق الصلاة والشكر، حيث أخذ يسوع الخبز ورفع عينيه إلى السماء وبارك وشكر وكسر الأرغفة وأعطى تلاميذه ليقدموه للجميع (مرقس ٦:٤٠).

٣- الاقتسام والمشاركة أساس وجوهر المعجزة، والانفتاح على الآخرين وعلى الجار والغريب والمحتاج والفقير "**فأمر يسوع الجمع أن يقعدوا على الأرض، وأخذ الأرغفة السبعة والسمكات وشكر وكسرها وأعطى تلاميذه... فأكلوا كلهم حتى شبعوا... ورفعوا سبعة سلال ممتلئة**" (متى ١٥: ٣٥).

سماع كلمة يسوع تعني الحياة معه ووفق مشيئته، والإيمان يقودنا إلى الاقتسام والإحسان والصدقة والتضامن، يسوع يهتم بحاجاتنا الجسدية لكنه يضعها في إطارها الصحيح، لأن الأولوية تبقى لكلمة الربّ، إذ ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

الرواية الثانية التي لها علاقة بالخبز هي العشاء الرباني، الذي أصبح قربان الكنيسة وحضور يسوع المسيح بيننا "**كلما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون بينهم**". يسوع يصبح حبة الحنطة التي تموت لتعطي ثمرًا كثيرًا (يوحنا ١٢:٢٤)، وخبزًا مقدسًا لنا، وهنا عملية تكثير الخبز مستمرة لا تنتهي إلى الأبد.

يقتبس يسوع مقطعًا من العهد القديم ليوبّخ المجرّب ويفنّد أكاذيبه، فيقول: "**حتى يعلمك أن الإنسان لا يحيا بالخبز وحده، بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيا الإنسان**" (تثنية ٨:٣).

كان ألفريد دلب كاهنًا ألمانيًا يسوعيًا معارضًا للنازية، وأُعدِم حرقًا عام ١٩٤٥، إذ خيّروه بين ترك الرهبنة اليسوعية ونشاط المعارضة، كشرط لإطلاق سراحه حرًا. لكنه رفض واختار الحياة الأبدية، وله عبارة مشهورة جدًا "**الخبز ضروري، والحرية ضرورية أكثر من الخبز، لكن العبادة بدون انقطاع هي الأكثر ضرورة**". عندما نهمل ترتيب الأولويات في الحياة، تنقلب الحياة رأسًا على عقب، وتنهار العدالة وتُهان كرامة الانسان وتُهمل معاناة الناس، لأن العالم يرى بعيون ماديّة محض، ويعتبر الإيمان والله مسألة ثانوية، يضعهما جانبًا مقابل أشياءٍ أهمّ، لكنه ينسى أن كل هذه الأشياء مصيرها الفشل وخيبة الأمل في وعود لا تتحقق.

والدليل على ذلك هو النتائج السلبية للتجربة الماركسية وكل الايدلوجيات الإلحادية الأخرى التي جاءت بعدها، إذ أثبتت فشلها وأدت إلى كوارث كبيرة. فالمعونات الغربية إلى الدول الفقيرة والنامية، والاعتماد على المبادئ المادية فقط، ساهمت في ترك الله وراء ظهرها وقادت المجتمعات بعيدًا عنه، بحجة اعتبار التطور والمعرفة والتكنولوجيا مبادئ أفضل، ووضعوا هذه الأشياء في أولويات الإنسان، والعنصر المادي هو الهدف. هذه المبادئ هي المسؤولة عن تحويل (العالم الثالث إلى عالم ثالث حقًّا)!

وضعوا جانبًا الإيمان الأصيل والمبادئ الجوهرية والأخلاق والأسس الاجتماعية الراقية، استبدلوها بالأفكار المادية المجردة، والعقليات التكنولوجية، وضعوا كل هذه في الحيز الفارغ! فالغرب يؤمن بإمكانية تحويل الحجارة إلى خبز، لكنه مع ذلك يعطي الحجارة بدل الخبز!

"الخبز الذي تحفظه في المخبأ، هو ملك الجائعين، وأنت سارق إذا لم تعطي للمحتاجين" (القديس باسيليوس / العظة رقم ٦).

علينا اليوم أن نعيد حساباتنا من جديد ونرتب أولوياتنا، نهتدي إلى كلمة الله التي كانت نقطة انطلاق اليوبيل العظيم الذي نحتفل به هذا العام، لكي نخرج إلى النور ونسير في الطريق المؤدي إلى العتبات المقدسة. ربما يسأل أحدنا: لماذا لم يجعل الله حضوره أكثر وضوحًا؟ لماذا لم يترك وراءه بصمة قوية وعلامة مؤثرة، عجيبة لا تقبل الشك، تدهش كل من يراها ويسمعها؟

العالم الذي نعيش فيه اليوم عالم تكنلوجيا متقدمة، يؤمن فقط بكل شيء مادي ملموس يراه بأم عينيه ويرغب بالسيطرة عليه عن بعد والتحكم به اوتوماتيكيًا. لكن طريق الله ليس كذلك، نتعرف عليه من خلال الخروج من عبودية عصرنا وفرعون كل زمان ومكان نعيش فيه، فحولنا غش وخداع فلسفي كبير وكثير يحاول سحب البساط من تحت أقدامنا ليحقق مصالحه المادية وايدلوجياته التي باتت معروفة. علينا أن نسهر ونصلي إلى الرب لنفهم أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بطاعة الله وممارسة وتطبيق وصاياه، عمليًا وواقعيًا في كل حياتنا، حينها فقط يتوفر الخبز لكل الجياع في العالم المعاصر.

(العسل لا يُجتنى إلا بوخز أبر النحل)

التجربة الثانية: لا تجرّب الرب إلهك: المعنى المثالي والنموذجي لهذه التجربة هو الأصعب لأنها رؤية تصور الواقع الخطير الذي يواجه يسوع المسيح وكل إنسان أيضًا. هناك مغالطة وشيء جدير بالملاحظة: الشيطان يقتبس نصًا مقدسًا من التوراة ويحاول خداع يسوع وإيقاعه في فخ خبيث، فيقول: **"الله يوصي ملائكته بك، ليحرسوك في جميع طرقك، وعلى أيديهم يحملونك، لئلا تصدم بحجر رجلك"** (مزمور ٩١:١١). تكتسب هذه الكلمات أهميتها ومعناها عندما تُقال في المدينة المقدسة وبالتحديد في الهيكل المقدس، مسكن الله وبيته. فحين يصلّي المؤمن هذا المزمور في حضرة الرب يعرف أنه سيجد الحماية والراحة والأمان أكثر من أي مكان آخر. والشيطان يظهر نفسه وكأنه لاهوتي عظيم (خبير) في

تفسير نصوص الكتاب المقدس! كما يقول اللاهوتي الألماني الكاثوليكي **جواكيم جنلكا** في تعليقه على التجربة الثانية ليسوع. الجدل هنا يأخذ شكل صراع بين عالمين مختلفين، ثقافتين، رؤيتين، طريقين... ألخ.

ويعلّق الفيلسوف الروسي **فلاديمير سولوفيف**، دكتوراه في جامعة توبنغن، على الموضوع في كتابه الرائع بعنوان "**قصّة قصيرة عن الأنتي كرايست**"، فيه يهز المشاعر بشكل مؤثر، لأنه لا يفسّر تجارب يسوع بطريقة لاهوتية فحسب، بل يبين ملامح التحديات التي تفزع حياتنا وموقفنا منها اليوم، ويبين أيضًا الخط الرفيع الفاصل بين الإيمان والإلحاد، الثقة والشك، الطاعة والجحود، عندما يصبح اللاهوت مجرد معلومات وبراعة ودهاء في تفسير النصوص المقدسة، واضطلاعًا واسعًا بنشوء الإيمان المسيحي، بعيدًا وليس له علاقة بالأسئلة الجوهرية والقرارات المصيرية لكل إنسان. وفي هذه الحالة، لا يخدم اللاهوتُ الإيمان بل بالعكس يضعفه ويدمره، لأن العين سراج الجسد.

يدور الجدل اللاهوتي بين يسوع والمجرّب حول تفسير النص الكتابي نفسه، أي المعيار الذي نستعمله في تقييم ومعالجة النص، وهذا لن نجده في خزائن التاريخ الحرفي المجرد. **السؤال الحقيقي**: ما هي صورة الله في نظرنا عند التأمل في موضوع كهذا؟ من هو الله؟ هناك مقطع جميل يوضح لنا الجواب في الكتاب الذي ذكرته أعلاه يقول: "**هو يؤمن بالله، ولكن في أعماق روحه يفضّل نفسه عليه**". يدور الجدل حول تحقيق مواعيد الله في العهد القديم، أي إذا كان يسوع حقًا المسيح الموعود المخلص! هل هو هذا الرجل المسكين الذي لا حول له ولا قوة، معلّق على الصليب بلا حماية من الله، لم يحقق العدالة والسعادة التي يتحدث عنها الكتاب ذاته، الصراع هو عن صورة الله وفي اللحظة الحاسمة تظهر صورة يسوع المسيح.

هل هذا الذي بقي دون سلطان أرضي هو حقًا ابن الله المخلص الموعود؟ فمملكته ليست من هذا العالم. الصراع في الكتاب المقدس هو معركة الله في يسوع المسيح، ويجب أن تنشب دائمًا من جديد في كل زمن!

يقودنا السؤال الأساسي للجدل الديني بين المجرّب ويسوع إلى المضمون الجوهري للفكرة، ما هو المقصود بالضبط؟ البعض ينسب هذه التجربة إلى فكرة قديمة تدعى "**الخبز والتسلية**"، لأنه عليك، بعد أن تشبع البطون، أن تقدم مشاهد مسلية وعروضًا مغرية. فمن لا يريد أن يدخل الله قلبه وحياته، لا يكتفي بالخبز وحده، بل يقدم عروضًا مغرية تدغدغ المشاعر والغرائز، ومشاهد مسرحية تشويقية تحل محل **(رهاب الدين)!** تبعد التفكير عن وصايا الله ومتطلبات الإيمان، ليتخلص من مسؤوليته نهائيًا ويعوض فشله وسقوطه. كان الرومان يقدّمون الطعام ومباريات المصارعة والألعاب العنيفة المشوقة لصرف انتباه الناس عن الفشل والسقوط الأخلاقي للإمبراطورية.

لكن هذا ليس المعنى الحقيقي للرواية التي يسردها الإنجيل، فلا يوجد جمهور من المتفرجين على هذا المشهد، بل يظهر الموضوع في إجابة يسوع ومن سفر التثنية أيضًا: "**لا تجرّب الربّ إلهك**". يشير سفر التثنية إلى شعب اسرائيل الذي كاد يهلك من العطش في البرية، فتمرّد على موسى وبالتالي على الله، ولكن الربّ لن يتركهم يهلكون لأنه يفي بوعوده دائمًا، لأنه الله وليس إنسانًا. في موقف مشابه، نرى الشعب المتمرد يريد إخضاع الله للامتحان فيقول: "**هل الله معنا أم لا**" (خروج ١٧:٧)، يضعون شروطًا ومواصفات لتطابق رغباتهم، كما يفعلون اليوم مع البضائع ومنتوجات المصانع فيخضوعها للسيطرة النوعية. عليه أن يثبت كفاءته في حمايتنا، كما يقول المزمور، لكي نتاكد أنه هو الإله الحقيقي وأن كلماته فعّالة غير مشكوك فيها!

السؤال المحرج والصعب هو كيف نستطيع معرفة الله وكيف لا نستطيع معرفته؟ كيف يرتبط الإنسان به وكيف يفقده ويبتعد عنه؟ هذا هو السؤال المحيّر، وهي الكبرياء والغطرسة التي تريد أن تجعل الله شيئًا ماديًا وتفرض شروطها عليه، فلا تستطيع أن تجد الله أبدًا، لأننا بهذه الطريقة ننكر وجوده ونضع أنفسنا محله وفوقه، نتجاهل صوته الذي ينادينا في داخلنا، لأننا لا نشعر إلا بالأشياء الملموسة باليد. من يفكر بهذه الطريقة لا يهين الله فقط، بل يهين نفسه وذاته والعالم كله.

مشهد الصليب: من قمة الجبل حيث يمكن مشاهدة الهيكل المقدس من فوق، نستطيع أن نرى مشهد الصليب. لن يرمي يسوع نفسه من فوق الجبل لأنه لا يجرّب الربّ إلهه، ولا يخضعه للامتحان كما نفعل أحيانًا. لكنه يهبط إلى مثوى الأموات، في ليل المتروكين والمهمشين الذين لا حول لهم ولا قوة، يضحي بحياته من أجلهم ليعبّر عن حبّ الله للإنسان لأنه يعرف أنه سيسقط في حضن الآب الرحوم.

يظهر الآن المعنى الحقيقي للمزمور ٩١: ١، حيث الثقة المطلقة والاتكال على الربّ، فيقول: "**من يقيم في حمى العلي، وفي ظل القدير يبيت، يقول الرب حماي وحصني، أنت إلهي الذي اتكل عليه**". يعرف المزمّر أن أساس العالم هو الله المحبة، وحتّى عندما لا يجد عونًا لمصيبته، يستمر في السير على الطريق بثقة إلى الآب الذي يحبه، ويشجعنا على تلبية نداء الرب القائم من الموت، ويدعونا إلى حياة جديدة خارج المألوف. محبته تمنعه من التفكير في حسابات الربح والخسارة، فيضحي بحياته من أجل احبائه.

(الطبيعيات ليست فينا) ·

التجربة الثالثة: المسيح وضد المسيح: التجربة الأخيرة هي ذروة الرواية. يأخذ المجرّب يسوع إلى جبل عالٍ ليريه جميع ممالك الدنيا ومجدها، وعرض عليه أن يعطيها كلّها لكي يملك العالم! أليست هذه مهمّة المسيح وغاية الله؟ أليس المفروض أن يكون ملك العالم، ويجمع الكل في مملكته ويتحقق العدل والسعادة والسلام؟

هنا أيضًا نجد علاقة بفكرة الخبز، تكثير الأرغفة والعشاء الرباني، يقول الربّ للتلاميذ بعد قيامته من الأموات: "**نلت كل سلطان من السماء والأرض**" (متى ١٦:٢٨)، الجديد هنا هو سلطان السماء والأرض معًا، من يملك كلاهما هو الله فقط الإله الحقيقي، لأنه بدون سلطان السماء يبقى سلطان الأرض هشًا ناقصًا وفيه خلل وعيوب كثيرة. لكن السلطة التي تخضع لمعايير السماء تحقق العدل والسلام بنعمته وبركته وحمايته، فنحيا الأبدية. وهناك عامل ثالث هو سلطان القيامة من الموت، ويعني حمل الصليب والجلجلة، عندما بقي معلقًا ومتروكًا، وتخلى تلاميذه عنه حتى مات.

تختلف مملكة المسيح عن ممكة الأرض، ومجد العالم الذي عرضه الشيطان لاغرائه. الكلمة اللاتينية (doxa) تعني مجدًا خياليًا مفككًا وهميًا وغير حقيقي، المجد الحقيقي هو الذي يعطيه الربّ يسوع المسيح، لأنه مختلف، ينمو ويزدهر ويعطي ثمرًا كثيرًا، ينمو من خلال التلمذة والتواضع والوعي والمسؤولية، ولمن يسمح له أن يسكن قلبه ويولد من جديد، وينال عماذه ويفتح الباب ليتعشى معه. يحفظ وصاياه ويعمل بها طول حياته، لأن الخير هو في الالتزام، والإخلال بها يؤدي إلى صراع وكوارث، وما يجري من صدامات وخراب في عالم اليوم تشهد على ذلك، لذلك يقول يسوع: "**اذهبوا وتلمذوا كل الأمم وعمذوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلّموهم أن يعملوا بكل ما أوصيتكم به، وها أنا معكم إلى إنقضاء الدهر**" (متى ٢٨:١٩).

يظهر موضوع التجربة الحقيقي من خلال مجرى التاريخ، ولكن بشكل جديد: حاولت الامبراطورية المسيحية بعد قسطنطين مباشرة أن تستغل الإيمان المسيحي في توحيد الامبراطورية، فانتحلت مملكة المسيح صفة مملكة سياسية ومجد أرضي، نتيجة ضعف الإيمان، لأنهم اعتقدوا أن يسوع مغلوب على أمره وليس له سلطان على الأرض، فاستعاضوا عنه بقوّة الجيش والسلطة والسياسة، ليشيدوا مملكته بأساليب غريبة وبعيدة عن روح الإنجيل. وهذا الكلام حدث ولا يزال يحدث باستمرار، بأشكال وألوان مختلفة في كل زمان ومكان، في عالم "**الحداثة المعاصر الذكي**". وتتكرر هذه الأفكار بحجة حماية الإيمان والدين إلى درجة أن الإيمان اختنق من فرط القوة والايدلوجيا. الصراع من أجل حرية الفكر والكنيسة، من أجل ملكوت الرب يسوع المسيح، لا يشبه أي نظام سياسي قديم أو حديث، ولا يفرض بالقوة المسلحة. علينا أن نستمر في السير من أجل تحقيق هذا الهدف الأسمى، لأن عواقب دمج الإيمان بالسياسة وخيمة ومدمرة جدًا، ولا يمكن للإيمان أن يصبح وسيلة في خدمة الأهداف السياسية والمصالح الايدولوجية الضيقة.

باراباس (ابن الربّ): في رواية الآلام وخلال محاكمة يسوع، يظهر البديل! من خلال مطلب المحتجين والمتظاهرين الغاضبين، مما جعل بيلاطس يطلب منهم أن يختاروا بين يسوع وباراباس، ليطلق سراح أحدهما حرًا، كما جرت العادة وحسب التقليد آنذاك. ولكن من

هو باراباس هذا؟ ما علاقته بموضوعنا؟ القديس يوحنا يوضح ذلك بقوله: "**وكان باراباس لصًا**" (يوحنا ١٨:٤٠). لكن الغريب أن كلمة لص (robber) في اللاتينية تعني شيئًا آخر في ذلك الزمان، وتحديدًا في مجال النضال من أجل الحرية. فهو محارب وأحد أقطاب المعارضة البارزين في حركة التمرد والعصيان ضد السلطة، والطامّة الكبرى أنه متّهم بجريمة قتل، كما يذكر إنجيل لوقا (٢٣:١٩): "**وكان باراباس في السجن لاشتراكه في فتنة وقعت في المدينة ولارتكابه جريمة قتل**". يؤكد إنجيل متّى أيضًا أنه سجين سيء السمعة "**وكان من عادة الحاكم، في كل عيد أن يطلق واحدًا من السجناء يختاره الشعب، وكان عندهم في ذلك الحين، سجين مشهور اسمه باراباس، فلما تجمهر الناس سألهم بيلاطس: من تريدون أن أطلق لكم، يشوع باراباس أم يسوع الذي يقال له المسيح؟ وكان بيلاطس يعرف أنهم من حسدهم أسلموا يسوع**" (متى ٢٧:١٥). نكتشف هنا أن باراباس هو شخصية مسيحانية أيضًا! يا له من موقف غريب، لدينا شخصيتان مسيحانيتان تقف الواحدة أمام الأخرى! الاختيار بينهما لم يأتي بالصدفة وخصوصًا عندما نكتشف أن باراباس هو اسم تقليدي معروف في الحركات المسيحانية التي كانت تظهر في فترات مختلفة، وهي تعني أيضًا (ابن الربّ)!

كانت آخر حرب يهودية مشيحانية عام ١٣٢ ق.م، بقيادة باركوبا وتعني (ابن النجم)، وهذا الاسم يشبه كثيرًا موضوع روايتنا. ونعرف من القديس اوريجانوس تفاصيل أخرى مهمة لقضيتنا فيقول: تتحدث مخطوطات إنجيل أصلية كثيرة من القرن الثالث الميلادي، عن ظهور رجل يدعى اسمه **يشوع باراباس وابن الآب**. ظهر هذا الرجل كشبيه ليسوع المسيح، وهو يتحدث بنفس الأسلوب ويطرح القضية نفسها ولكن بطريقة مختلفة. صارت المنافسة الآن حامية بين المشيح الذي يخوض معارك شرسة وحروبًا مسلحة من أجل الحرية وإقامة مملكته بالقوة، وبين مشيح وديع متواضع ومسالم وكلامه غامض، يؤمن بأن من يخسر نفسه يربح الحياة الأبدية! يا له من موقف عجيب، هل سنندهش إذا اختار الناس باراباس بدلاً من يسوع؟ لو كنّا في الموقف نفسه اليوم، مَن كنا سنختار، بأي منطق سنختار؟ يسوع الناصري ابن مريم، أم باراباس ابن الآب؟ يا ترى من منهم له حظ كبير معنا اليوم لكي نختاره مخلصًا؟ هل نعرف يسوع جيدًا أم نعرفه بشكل عام ومن الخارج فقط، من خلال الصور

والتماثيل والأيقونات، هل نفهم قصده وما يتطلب الإيمان به؟ لكي نبذل ما بوسعنا لنحمل صليب الحب والآلام ونعرفه عن قرب؟

ضدّ المسيح: المجرّب ليس ساذجًا ليقترح علينا أشياء غريبة غير منطقية وغير واقعية لكي نسقط في حباله وآلاعيبه الجهنمية. هو يغلف الأشياء لتبدو منطقية لكن باطنها يحمل الكذب والخداع. ربما لا يطلب منّا أن نترك الله، بل يطلب ألاّ ندعه يتدخل في خصوصياتنا وجوهر حياتنا! كأنه يقول: انتبه هناك حدود لكل شيء، لا يجوز تجاوزها، حياتك خط أحمر! لا أحد له الحق في التدخل بحياتك. يتحدث اللاهوتي الروسي فلاديمير سولوفيف على كتاب يُنسب إلى الأنتي كرايست "ضدّ المسيح" وعنوانه (**الطريق إلى السلام والسعادة في العالم**)، والذي يعتبرونه الإنجيل الجديد إذا جاز التعبير. وفيه طقوس عبادة غريبة تجري ممارستها بشكل ترفيهي بحت، ويركز عل المبدأ والمنطق العقلاني والمادي في مضمونه الفعلي.

عقبات في الطريق: كما نلاحظ، التجربة نفسها تعود مرة بعد أخرى خلال التاريخ، لكن بشكل مختلف. في العهد الجديد، بعد أن شهد بطرس أنّ يسوع هو ابن الله الحي، ولئلا تختلط الأمور على التلاميذ ويفهمون الرسالة بشكل معكوس على طريقة باراباس، يقول يسوع للتلاميذ إن على ابن الانسان أن يتألم كثيرًا ويرفضه العالم ويصلب ويموت، ثم يقوم من جديد. بطرس الذي تكلم بوحي من الروح القدس قبل قليل، نراه الآن يتكلم بعواطفه فيعاتب يسوع ويقول له: "**لا سمح الله يا سيد لن تلقى هذا المصير**" (متى ١٦:٢٢)، لكنه سمع توبيخًا قاسيًا لم يتوقعه من الرب: "**ابتعد عني يا شيطان، أفكارك هذه أفكار البشر وليست أفكار الله، أنت عقبة في طريقي**". مشيئة الله تعارض مشيئة البشر، والتجربة تحريض مبطن للابتعاد عن الله، لكن يسوع يقتبس من سفر التثنية ليجيب الشيطان: "**للربّ إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد**". ويستخدم اسم اسرائيل بعبارة "اسمع يا إسرائيل"، وهي أساسية في العهد القديم واعتراف إيمان وصلاة، ومهمة أيضًا في العهد الجديد والحياة المسيحية بقوله: "**اسمعوا يا بني اسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، فأحبوا الرب إلهكم بكل قلوبكم وكل نفوسكم وكل قدرتكم**" (تثنية ٦:٤). في اليهودية يصلّي المؤمن هذه الكلمات ليأخذ على عاتقه حمل

نير مملكة الله، وهذا بالضبط ما يحدث مع يسوع، إذ يعلن أن مملكة الله في العالم هي **حيثما يحل السلام والأمان وتحترم كرامة الإنسان**، ويعبد الناس الرب ويطبقون وصاياه في حياتهم. هناك تكون مملكته وينضبط ايقاع الحياة وينسجم مع الجمال والفرح الإلهي الكبير، فعبادة الله الآب أولوية وشرط أساسي لخلاص كل إنسان.

الانتصار العظيم: يعمل سلطان الله بصمت وهدوء وليس بصخب وضجيج، هذا واضح في رواية تجارب يسوع وكل تفاصيل حياته، وهو السلطان الحقيقي والباقي إلى الأبد.

يبدو أن قضية الله، هي صراعٌ حتى الموت، صراع مستمر ورغم ذلك يبقى هو المخلص الوحيد لأنه حبّ مطلق ليس قبل أو بعد أو أثناء، بل هو حضور دائمًا وأبدًا. الله ضرورة قصوى لا يمكن الاستغناء عنه. وعلى كل حال يثبت التاريخ أن الممالك التي عرضها الشيطان على يسوع اختفت وتلاشت ولم يبق منها شيء. أين مجدها العظيم؟ كانت وهمًا وخداعًا وكذبًا فسقطت، لكن مجد الرب يسوع المسيح خالد لا يفنى وهو باقي إلى الأبد. هو المنتصر في حربه مع الشيطان كما يذكر الإنجيل: "**ثم تركه ابليس، فجاء بعض الملائكة يخدمونه**" (متى ٤:١١).

تدعونا سنة اليوبيل لاكتشاف هذا الانتصار العظيم والمجد الازلي، ونسمح أن يساعدنا هذا النصر في قراراتنا واختياراتنا كل يوم، لأنه بالوعي والإيمان العميق يتميز الإنسان.

(من معه الله لا ينقصه شيء، الله وحده يكفي) (٢٢٧)

الاستنتاج: أختر الحياة: في زمن الصوم، وبالتحديد في قراءات الخميس الذي يلي أربعاء الرماد، تختصر الليتورجيا المبادئ الأساسية للحياة المسيحية، والخلاصة التي خرجنا بها من تجارب يسوع في البرية هي أن لا أحد يمكنه التهرب من التجارب في حياته، لكن الاختيار يعود إليه، يقول الرب في (تثنية ٣٠:١٥): "**ها أنا جعلت بين أيديكم الحياة والخير، الموت والشر، فأذا سمعتم كلام الرب ألهكم الذي أنا آمركم به اليوم، وهو أن تحبوا الربّ إلهكم، وأن تسلكوا في طرقه وتعملوا بوصاياه وسننه وأحكامه**". اختاروا الحياة: ماذا يعني هذا؟

كيف يمكن تحقيقه عمليًا؟ هل يعني امتلاك وقبول كل شيء يعرضه العالم المتقدم علينا؟ بدون أن نضع حدودًا لكل شيء وأن نجرب أبعد ما تصل إليه أيدينا؟ أليست المتعة والترف هي الحياة؟ نريد أن ندلل أنفسنا كالأطفال، ألا يحصل هذا كل يوم أمام عيوننا وفي كل مكان. لكن عندما نتأمل هذه السلوكيات بعمق نكتشف أنها هشة تنتهي إلى الجحيم! يقول الرسول بولس عن نفسه: "**الخير الذي أريده لا أعمله والشرّ الذي لا أريده أعمله**". هذا هو التحدي التقليدي، كإدمانات الكحول والمخدرات، المتعة والجنس الرخيص، الترف... ألخ، كل هذه تشعرنا بعدم الرضا والاكتفاء فنبقى ندور في دوامة وحلقة مفرغة إلى أن نسقط في شباك الكذب وثقافة الموت، والضياع وعدم احترام الذات، بعيدًا عن الحياة التي نستحق، وما نظنه مجدًا وفرحًا هو بالحقيقة وهم وخيال، لأن الشيطان يزيف ويزور الحقائق لنختار الطريق الخاطئ البعيد عن الله بالغرور والكبرياء والنرجسية والانانية. أليس الجهاد الحقيقي هو ضد الشهوة واللذة والسلطة... ألخ؟

إن طريقًا كهذا يحرّف ويشوّه الحياة الحقيقية، وينساق فيه الإنسان كعبدٍ وراء رغباته ونزواته، لأن الأنا منطلقها الوحيد! اختر الحياة يعني ما يقوله الربّ في سفر التثنية، والجواب موجود هنا: "**تطيعوا الرب ووصاياه أحكامه... فيباركم في الأرض التي أنتم داخلون اليها لتمتلكوها**". اختر الحياة تعني قبول ما اختاره الله لنا، تعني الثقة والإيمان به، والاشتراك بمحبته وفرحه. تمزج ليتورجيا يوم الخميس قراءات سفر التثنية مع إنجيل لوقا ٩:٢٢ حيث يكشف يسوع عن مصيره وآلامه وصلبه وموته، وتصحح أفكار بطرس الذي يمنع يسوع من خوض التجارب، لهذا يقول لنا: "**من أراد أن يخلص حياته يخسرها ومن خسر حياته في سبيلي يخلصها، ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه أو أهلكها**" (لوقا ٩:٢٤).

الصليب لا يعني رفض الحياة، بل العكس لأنه سعي نحو الكمال والامتلاء والتحضر والوعي والمسؤولية، وكشف لطريق الفرح والسعادة والسلام. فالإنسان الذي يمتلك الحياة ويسجنها، يخسرها ويعيش على الهامش. الشجعان فقط من يستطيعون أن يضحوا بحياتهم ليربحوا الحياة الأبدية. هناك غنى وعطاء وجمال يعجز اللسان عن وصفه. في حقيبة

الذكريات أسماء كثيرة من هؤلاء الشجعان الذين أناروا الطريق خلال آلاف السنين، مثل فرنسيس الأسيزي، ترازيا الافيلية، فنسنت دي بول، ماكسمليان كولب، ترازيا الطفل يسوع، الأم تريزا كلكتا... والقائمة طويلة جدًا لا تسعها صفحات هذا الكتاب، كلهم مثال لنا في التلمذة للمسيح ووضعوا علامات على الطريق وعلمونا كيف نختار الحياة ومعنى الوجود الحقيقي للبشر.

(به نحيا ونتحرك ونوجد)

"الخيرات ليست ملكًا لك، إنها ملك مشترك لك ولأخيك كما السماء والأرض. وكل شيء آخر هو مشترك" (القديس يوحنا ذهبي الفم)

"الثوب الذي تقفل عليه في الخزانة هو ملك العراة، والحذاء الذي يتلف عندك هو ملك للحفاة، والذهب الذي تدفنه هو ملك للمحتاجين. فأنت مجحف بحق الذين يجب أن تسد حاجاتهم ولا تفعل" (القديس باسيليوس)

الفصل السادس

الخبز اليومي وخبز القربان

تأملات في عيد الجسد

لماذا هناك جياع كثيرون في العالم؟ ولماذا يموت الأطفال من الجوع، بينما يوجد ناس كثيرون متخمين إلى حد الشراهة من الترف والبذخ؟ لماذا لا يزال لعازر ينظر إلى هذا اليوم إلى موائد الاغنياء لعله يحصل على فتات يفضل عنهم ليسدّ جوعه، هذا إن استطاع الاقتراب من عتبة قصورهم ولم يطردوه؟! المشكلة ليست لأن الأرض لا تنتج طعامًا بما فيه الكفاية، بل المشكلة في الغرب والرأسمالية، إذ تُدفع الأموال لإتلاف المحاصيل الزراعية والحفاظ على أسعار عالية وتحقيق أرباح خيالية بينما يموت الكثير من الناس جوعًا كل يوم.

إنّ العقل البشري ذكي جدًا في ابتكار أسلحة الدمار الشامل، بدل وسائل حفظ وبناء الحياة، يوظف براعته بامتياز في وسائل الاستغلال والمصالح المادية الفتاكة في كل زاوية من العالم فيها ربح وفائدة. أليس من الأجدى استثمارها في توفير الغذاء للمحتاجين؟ ماذا يحصل في عالمنا المعاصر وإلى أين سنصل؟ وما السبب؟ الجواب بسيط: لأن الروح لا تتغذى من السماء، والقلوب تحجرت كالصخر وصارت قاسية وعمياء، لا ترشد عقلنا التكنولوجي والعلمي إلى الصواب! قلوبنا في حالة فوضى عارمة، هناك نقص في الحب والرحمة الإنسانية، التي هي أساس العدل والسلام والحقيقة. عندما نسلط الضوء على هذه التفاصيل بوعي وعمق، نفهم جيدًا ما يقصده يسوع بردّه على الشيطان: **"ما بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله"** (متى ٤:٤).

القلب أبصر من العين: لكي يتوفر الخبز للجميع يجب أن يتغذى القلب أولاً من السماء بكلام الله، لكي ينمو السلام والحب والرحمة في القلب والروح، ببركته ونعمته، وبدونها لا يمكن عمل أي شيء. كلمة الرب تجسدت وصارت إنسانًا، ونحن ننفتح عليه ليصبح طعامنا

وشرابنا وكل حياتنا. الله نفسه تواضع وصغّر نفسه ليكون قريبًا جدًا منّا، يعطينا من فيض محبته وسلام ملكوته السماوي "**افتقر لأجلكم وهو الغني لتغتنوا أنتم بفقره**" (٢كو ٨:٨).

هذه العلاقة بين الله والإنسان هي موضوع الاحتفال بعيد القربان المقدس، نحمل الربّ الذي تجسد وصار خبزًا لكل الجياع في الشوارع والمدن، في حياة كل واحد منّا أينما كنّا. لا يعيش بعيدًا عنّا، بل هو حاضر معنا في فعاليات روتين حياتنا اليومية، اسمه عمانوئيل يرافقنا أينما نذهب ليصبح هذا العالم معبده وبيته وليس في المذبح والكنيسة فقط.

عيد القربان المقدس يوضح لنا معنى الأفخارستيا، العشاء الرباني، أي المشاركة وقبول الرب بكامل إرادتنا وكينونتنا. لا أحد يتناول جسد الرب كمن يأكل قطعة من الخبز، بل نستقبل كلمته بالشكر بالترحيب والتهليل ونسلم له ذواتنا. يصف سفر الرؤيا ذلك بطريقة رائعة: "**أنا واقف على الباب أدقه، فإن سمع أحد صوتي وفتح الباب، دخلت وتعشيت معه، وتعشى هو معي**" (رؤ ٣:٢٠).

يطلب صاحب العيد أن يصبح صوت الطرق على الباب مسموعًا للآخرين، وخاصّةً من يصعب عليهم السماع في زحمة الأفكار والأيدلوجيات وصخب العولمة. إنهم يسمعون الأشياء المادية الملموسة، بينما يطرق الرب أبوابنا كل يوم وساعة ودقيقة، يقول دعني أدخل قلبك لتحيا فيّ وأحيا فيك. لن يحدث هذا في لحظةٍ خاطفة من خلال تقوى سطحية وممارسات تقليدية فقيرة، بل يتطلب جهدًا وعمل تنشئة روحية معمقة مستمرة، لأن الله لا يفرغ مواهبه فينا جزافًا، ولا يدفعنا إلى الكمال قسرًا، بل يضع قدمنا على الطريق ولن نبلغه بسهولة بل بقدر ما نعطي نكون، وبقدر ما نرجو نصير.

يقول الرب: افتحوا لي الباب كما فتحتُ قلبي لكم، افتحوا باب العالم لأنير ظلام الفكر السائد وثقافة العنف واللاوعي، والفوضى غير الخلاقة، وقساوة القلب وضياع السلام. افتح الباب لأني رضيت أن أتألم على الصليب وأبذل ذاتي من أجلكم. دعوني أدخل، يقولها للمجتمعات والدول الفقيرة والغنية، للشرق والغرب، الشمال والجنوب، لكل لون وجنس وعرق، لكي تنطلق الطاقات الكامنة في البذرة، ويصبح للحياة معنى فنذوق طعم الفرح الحقيقي.

عيد القربان المقدس هو نداء الربّ لنا، وهو صراخنا إليه ليعود بنا إلى الينابيع الأصلية وجذور النور التي تكوّنا منها. العيد صلاة عميقة وعظيمة تساعدنا في فهم الصلاة الربية لأنها فوق كل الصلوات: يا رب أعطنا ذاتك، أعطنا خبزك الحقيقي. الطلب الرابع في الصلاة الربية يقول: **أعطنا خبزنا**، هذه الكلمة هي الفاصلة بين الطلبات الثلاث الأولى وبين الثلاث التالية التي تخص حاجاتنا الجسدية. لكن ماذا نطلب بالتحديد في هذه الصلاة؟ الخبز اليومي طبعًا، وهو طلب التلاميذ أيضًا، لأنهم لا يعيشون على الكنز المخزون ولا على الاستثمارات، بل على رحمة وطيبة وحنان الربّ الذي ظهر من حشا الآب حكمةً ومن حشا مريم إنسانًا ومن الصليب قيامة.

الصلاة هي طلب الفقراء في الروح، ومن ليس لهم أملاك ويطلبون حمايته، هي طلب كل محتاج عطشان إلى كلمة الربّ، هي صلاة البسطاء والمتواضعين الذين ينتظرونه بفرح ورجاء ويثقون بتحقيق مواعيده.

أبانا الذي: معنى الطلب يذهب الآن إلى معنى وعمق أبعد: كلمة (epiousios) التي تعني "خبزنا اليومي" غير موجودة في الوثائق اليونانية الأصلية، بل هي إضافة من آباء الكنيسة الأوائل. وقد جرى النقاش حول أهمية معناها لأنها تعني أيضًا: أعطنا خبزنا ليوم غدنا، أعطنا الخبز للعالم الآتي. الافخارستيا تستطيع الإجابة على هذه الكلمة الغامضة، خبز العالم الآتي الذي أعطيَ لنا اليوم، في العالم الذي نعيش فيه، الآن وفي كل أوان. من خلال الصلاة التي نطلب فيها ملكوت الله على الأرض، يتحقق ذلك عمليًا من خلال الأفخارستيا لأنها تصل السماء بالأرض. الله الذي طال انتظارنا له يصبح حاضرًا معنا، يحمل المستقبل والحياة الجديدة إلى يومنا الحاضر. نجنا من الشرير واغفر لنا ذنوبنا ولا تدخلنا في التجارب، لها علاقة بالخبز أيضًا، لأنه يقوينا ليصبح القلب يقظًا وواعيًا ومسؤولاً يمكنه مقاومة كذب وخداع الشيطان، نميّز ما بين الخير والشر، نتعلم الغفران ونصبح أقوياء بالروح وننتصر في التجارب.

العالم الآتي يعني: الحياة الجديدة، اليوم، بعد قليل، عندما نهتدي ونخشى الربّ ويصبح عالمنا إنسانيًا وإلهيًا. أعطنا خبزنا تعني الاقتراب من الربّ وملكوته يبدأ اليوم، الآن بيننا ومعنا، لأنه قال: كلما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، أكون معهم.

أخيرًا وليس آخرًا، يجب ألاّ ننسى أن كل الطلبات مقدّمة بصيغة **الجمع**، لأنه لا يستطيع أحد أن يقول لله "**يا أبي**" إلا يسوع، لكننا نستطيع أن نجتمع معًا ونقول أبانا، ننفتح عليه وعلى الآخرين بقلب وديع متواضع وصادق، وهكذا نكون على الطريق مع الربّ. القربان علامة اهتداء لنا ليصبح لوجودنا معنى وفرح عظيم.

عندما انتهى الربّ من حديثه عن القربان في الهيكل في كفرناحوم، تركه بعض تلاميذه ومضوا في سبيلهم، لم يتحملوا كلامه والمسؤولية التي يطلبها منهم. ربّما يفضلون حلولاً سياسية وبرغماتية لتحقيق أهدافهم تحت شعار "**وطن حر وشعب سعيد**"! أليست المشكلة ذاتها التي يعاني منها كثيرون في عصرنا الحاضر؟ كم من الناس تركوا المسيح في الماضي خلال التاريخ؟ لأن ما يطلبه الربّ لا يعجبهم ولا يلبي طموحاتهم البريئة! فانصرفوا إلى طرق بديلة أخرى، وكلنا نعرف جيدًا ماذا كانت النتيجة! إذا سألنا الربُّ اليوم: هل تريدون أنتم أيضًا أن تتركوني؟ ماذا سنجيب؟ هل سنقتدي ببطرس الذي قال للربّ: "**يا ربّ، إلى من نذهب يا سيد وكلام الحياة الابدية عندك؟ نحن آمنا بك وعرفناك، أنت قدوس الله**" (يوحنا ٦:٦٧).

الفصل السابع

الافخارستيا، الشركة، التضامن

١/٧ حضور الرب يسوع المسيح الفعّال من خلال السرّ المقدس

جرى هذا النقاش عام ٢٠٠٢، في احتفال افخارستي في ابرشية بينفيتو، حيث بحث المتحدث العلاقة العميقة بين السرّ الجوهري للكنيسة (سرّ القربان المقدس)، والمهمة العملية للكنيسة في تحقيق الشركة والمصالحة والوحدة. وجاءت هذه التأملات لمساعدة المشاركين في هذا الاجتماع، ليعيشوا وصية المسيح الجديدة عندما قال "**أحبّوا بعضكم بعضًا**".

في الكنيسة الأولى، كانوا يسمّون القربان (agape)، وتعني الحب، ويسمى أيضًا (pax) ويعني السلام. هكذا عبّر المسيحيون بطريقة رائعة عن العلاقة العميقة بين حضور الربّ السري والتطبيق العملي لخدمة السلام (praxis)، سلام المسيحيين. لم يكن هناك تمييز في ذلك الحين بين العقيدة orthodoxy وبين التطبيق الصحيح orthopraxis. بينما نراهم اليوم يقارنون ويلمحون بطريقة أو باخرى ويتحفظون من عبارة أرثودوكسي، إذ يطلقونها على كل شخص يتمسك بالعقيدة: يصفونه بالمتصلب وضيّق الأفق، يتمسك برأيه ولا يبدي مرونة في التسامح. في نهاية المطاف يعتمد كل شيء على التطبيق العملي الصحيح للعقيدة، ويقولون إن المهم هو الثمار التي تنتجها العقيدة ولا يهم الطريقة التي تصل إليها.

هذا التباين في الطرح يبدو غامضًا وغير مقبول في الكنيسة الأولى، لأن كلمة ارثودوكسي لم تكن تعني المذهب أو العقيدة الصحيحة، كما تُفهم اليوم، بل تعني التطبيق الصحيح والممارسة لعبادة وتمجيد الله. كان المسيحيون الأوائل يعتقدون أن كل شيء يعتمد على العلاقة الصحيحة مع الله، بمعرفة ما يسرّه ويرضى عنه، وطريقة التجاوب السليم معه. لهذا السبب بالذات أحبّ شعب اسرائيل، القوانين، الشريعة، الالتزامات، فمن خلالها يعرفون مشيئة الرب ويعيشون الاستقامة ويعبدونه بخشوع وتواضع قلب، بطريقة صحيحة ترضي وتسرّ الربّ. ينفتح المؤمن على المتسامي ويعمّ السلام والعدل الإلهي على العالم.

هكذا كان الفرح المسيحي الجديد الذي وهبه المسيح لهم، لذا وجب عليهم أن يمجدوه بالتهليل والفرح إذ به انتظم العالم ووضح الرؤيا، وجد ما ينقصه، حتى الملائكة تنشد المجد والسلام في ليلة الميلاد "**المجد لله في العلى، وفي الأرض السلام وللحائزين رضاه**" (لوقا٢: ١٤). مجد الله وسلامه لا ينفصلان أبدًا، لكن عندما نبتعد عن الربّ، يختفي السلام وتعمّ الفوضى والانقسامات والتناقضات والإلحاد... ألخ، وهذه تؤدي بنا إلى الموت، لأن التصرف السليم يتطلب إرادة ومعرفة باطنية معمقة، وعي وتعليم قواعد العيش الصحيح، وبدونها سيحلّ الهلاك والسقوط في الهاوية.

الخدعة الماركسية الكبيرة التي قالت: المسيحية فكرت لقرون وحاولت كثيرًا وبما فيه الكفاية حول مستقبل العالم، والآن جاء زمن التغيير، لكن السؤال ماذا نغير وما نوع التغيير؟ إذا لم نفهم معناه الجوهري وهدفه النهائي، عندما يتحول التغيير إلى تخريب وتدمير الثوابت والمبادئ الحقيقية للحياة الإنسانية، كما يحدث باستمرار في عالمنا اليوم من خراب، هو أكبر دليل على هذا الوضع المأساوي الذي تعاني منه البشرية.

العقيدة إذا لم تترجم إلى عمل وحياة حقيقية وتطبيق سليم في الواقع، تصبح مجرد ثرثرة فارغة بلا معنى ولا تنفع بشيء. العقائد ليست جامدة كخشبة يخدمها ويحرسها موظفون وكهنة، بل حقيقة حيّة قوية، متفاعلة ومتماسكة، لأن المعرفة والتجدد والعمل الجاد يجب أن يسيروا معًا، حيث يجتمع الإيمان والحياة معًا وهذا هو المطلوب. من هنا جاءت فكرة الشعار الذي رفعناه في الاجتماع الافخارستي في بينفيتو، الافخارستيا، الشركة، التضامن.

القربان (Eucharist): الافخارستيا هو المصطلح المعروف للتعبير عن جسد ودم يسوع المسيح، الذي أسسه الربّ في العشاء الأخير مع التلاميذ قبل الصلب. ذكرنا سابقًا أنه كانت هناك أسماء أخرى للقربان مثل (حب وسلام)، وأيضًا (synax) وتعني لقاء الجماعة، البروتستانت يسمونه (العشاء)، وذلك بالعودة إلى نص الإنجيل الأصلي، الذي يعتمده الفكر اللوثري ويعتبره الأساس الصحيح للعبادة. لكن رسائل بولس تسميه العشاء الرباني، واختفت التسمية تدريجيًا، وبحلول القرن الثاني لم يعد موجودًا. لماذا حصل هذا الابتعاد عن فكر وجوهر الإنجيل كما يظن لوثر؟ هل هناك اكتشاف جديد؟ بلا شك أن الربّ يسوع أسس

السرّ في العشاء الأخير مع تلاميذه، وكجزء من طقوس الاحتفال بعيد الفصح اليهودي، أي التجمع حول المائدة وتمرير الخبز من واحد إلى آخر حسب التقليد اليهودي. لكن السؤال المهم هنا: هل طلب الربّ من التلاميذ تكرار السر، بنفس الصيغة والإطار، كما لو أنه تقليد عيد الفصح القديم نفسه؟ بالرغم من أنه يشكل الإطار العام للسرّ، إلاّ أنه ليس جوهر وقلب السرّ، ليس هديته الجديدة التي يريد أن يهديها لنا، مع العلم أن التجمع حول المائدة في الفصح كان يتمّ لمرة واحدة في السنة فقط. بالاضافة الى ذلك، لم يكن الاحتفال الافخارستي في الكنيسة الأولى حول مائدة واحدة، بل بشكل مختلف. وصار هذا التحول الجديد لبناء كنيسة تجمع اليهود والجليليين، الوثنيين المهتدين إلى الإيمان المسيحي. والعلاقة مع المائدة جاءت بشكل عرضي وأسيء فهمها في البداية بشكل حرفي وآلي كما يوضح ذلك الرسول بولس في الرسالة الأولى إلى كورونثية (١١:١٧-٢٣): "**لكني في ما يتبع من الوصايا لا أمدحكم، لأن أجتماعاتكم تضر أكثر مما تنفع، فأول كل شيء، بلغني أنكم حين تجتمع كنيستكم تنقسمون شيعًا، وأنا أصدق هذا بعض التصديق، لأنه لابدّ من البدع فيما بينكم ليظهر فيكم الثابتون في الإيمان، أنتم لا تأكلون عشاء الربّ، حين تجتمعون، بل يأكل كل واحد منكم عشاءه الخاص، فيجوع بعضكم ويسكر آخرون، أما لكم بيوت تأكلون وتشربون فيها، أم إنكم تستخفون بكنيسة الله وتهينون الفقراء**".

جاء هذا التحول كجزء من التطور والوعي العميق الحاصل في الكنيسة الناشئة، ولإضفاء معنى روحي جديد وعميق ومفيد بعيدًا عن كل تفسير حرفي مجرد عن القوالب التقليدية القديمة. هذه النقلة النوعية الجديدة، هي من أجل دمج ليتورجيا الكلمة في التقليد اليهودي مع كلمة الرب يسوع المسيح في العشاء الأخير، وأخذت شكلها الحالي **كصلاة شكر عظيمة ومنح البركة** تستمد قوتها من التقليد الأصلي مع اعطائها عمق ومعنى أوسع، بفداء الرب لنا بجسده وبدمه المراق على الصليب. أدرك المسيحيون الأوائل أن الاشياء الجوهرية والرموز الطقسية أخذت مكانها الصحيح والأصيل، والقضية ليست مجرد أكل خروف الفصح كما جرت العادة في الليتورجيا اليهودية، بل صارت صلاة شكر ومنح بركة الربّ من خلال السرّ المقدس الحالي الذي نعرفه اليوم في قداسنا الأحتفالي المعروف.

نقدم الشكر للربّ بأيدي ضارعة، بدون أية شروط مسبقة، لأن كل شيء غامض ومخيف صار واضحًا ومفهومًا، تحوّل إلى حب من أجل، موت يسوع وموتنا معه، قيامته وقيامتنا معًا، لتكون لنا الحياة الأبدية.

العنصر الاساسي هو الشكر ومنح البركة وتمجيد الربّ، ويصف آباء الكنيسة الافخارستيا بصلاة التضحية والفداء الروحي، الذي تجسد في جسد ودم الربّ يسوع، هو الخبز الذي يغذينا إلى الأبد. كل الرموز والكلمات الطقسية تصبح علامات طريق تستبق العرس السماوي الجديد الذي ينتظرنا. أخيرًا نلخّص الموضوع بالسؤال الآتي: لماذا نحن المسيحيين لا نسمّي هذا السرّ عشاءً بل افخارستيا؟ الجواب لأن الكنيسة الأولى أعطت السرّ المقدس شكلاً ومعنى روحيًا عميقًا وجديدًا، بإلهام من الروح القدس. فالمضمون الجوهري حاضر بكليته في رموز الطقس الليتورجي كما أسسه الربّ يسوع المسيح. صرنا نتذوق جمال وحلاوة السرّ وعلاقة النصوص بالتقليد الكهنوتي القديم والأصلي.

اعتماد الإنجيل كوثيقة تاريخية فقط وقراءته بشكل حرفي، لم ولن يخدم رسالة وجوهر الإنجيل. ولكن الرؤية الثاقبة والعميقة، المتواصلة مع الجذور والينابيع الأصيلة، من خلال عيش الكلمة المشترك مع الجماعة، نرضي مشيئة الربّ ونكون على الطريق الصحيح إلى الملكوت.

الشركة (communio): المصطلح الثاني في موضوعنا الافخارستي هو الشركة، وهي إحدى الكلمات الجوهرية في التقليد المسيحي، وأصبحت شائعة ومعاصرة، وبات من الضروري أن نركز الضوء عليها لنفهم معناها الواسع والعميق: عندما التقيت مجموعة من الأصدقاء المختصين لإصدار نشرة دورية للمجمع، وتطوير نشاطه وتراثه، تبادلنا الآراء لإيجاد مصطلح يعبر عن مضمون النشرة الشامل، بكلمة واحدة. في نهاية عام ١٩٦٥، اختتم المجمع الفاتيكاني الثاني أجتماعاته وناقشنا فيه جملة من المواضيع المهمة برؤية عميقة وروحانية جديدة، يفترض أن يستمر هذا الصوت الذي خرج من اللقاء المسمّى مجمع (concilium).

لعب كتاب اللاهوتي **هانز كونك** بعنوان "**الهيكل الأساسي للكنيسة**"، دورًا كبيرًا في نقاشات مهمة عديدة. فهو يؤمن أن هناك تكافؤًا بين كلمة (ekklesia) الكنيسة، وبين (concilium) المجمع، وهو يناقش ويوضح المعنى المختفي بين السطور لكلا المصطلحين. فكلمة (kalein) باليونانية تعني ينادي، لذلك كلمة (ekklesia) تعني: **ينادي للخروج**، بينما كلمة (concilium) تعني **تنادي للتجمع**، فهو نفس المعنى في كلا الكلمتين وهذا يعني تطابق فكرة الكنيسة والمجمع معًا، لأنهما يؤديان إلى نفس الهدف. ففي طبيعة الكنيسة هناك مجمع الله المنعقد باستمرار في العالم، لذلك كانت الكنيسة تلعب دور المستشار الأساسي في المجمع، وبالمقابل ينظر إلى المجمع المنعقد بأسم الله، بأنه أقصى حضور ممكن للكنيسة الفاعلة.

عيش الكلمة: بعد سنوات عدّة، تابعتُ هذه الفكرة النيّرة بأن الكنيسة هي مجمع الله الدائم المنعقد في العالم. هناك وجهة نظر وبعض من الحقيقة في الفكرة، وأن المجمع مظهر مهم وحيوي للكنيسة. مع ذلك فإن الكنيسة شيء آخر مختلف عن المجمع لأنها ببساطة ليست مكانًا للتشاور ومناقشة الآراء، هي أكثر من ذلك بكثير؛ لأنها متجذرة بطبيعتها في عمق أصلها، وُجدت لكي تعيش الكلمة التي وهبها الرب يسوع المسيح مخلصنا، بينما المجمع تحدده الكنيسة وينبثق منها، وتتسق معه المواضيع التي تطرحها للتشاور.

الكلمة اللاتينية (koinonia) تعني مجمع، بينما كلمة (communio) تبدو لي معبّرة عن المفهوم الأساسي لجوهر الكنيسة التي تدعو إلى المجمع وتدير شؤؤنه، فالكنيسة إذًا ليست مجمعًا بل شركة جماعة. عندما طرحتُ هذه الأفكار عام ١٩٦٩ في كتاب بعنوان (The people of God)، شعب الله، لم ينتبه الاكليروس واللاهوتيون إلى فكرة (communio) في ذلك الحين، فأعطوني بذلك فكرة أن أختار عنوان نشرة صدرت بعنوان communion. لم تحظَ الفكرة بقبول واسع حتى سينودس الأساقفة عام ١٩٨٥. إلى ذلك الحين كان مصطلح "**شعب الله**" مفتاحًا للتعبير عن الكنيسة، إلى أن لفت انتباه واهتمام الفاتيكاني الثاني. ربما ستصبح مقبولة إذا تمّ استيعاب الفكرة بعمقها ومعناها الكتابي واللاهوتي، وتمّ استعمالها بشكل واسع في المجمع. وعندما صارت عنوانًا وشعارًا بعد فترة،

ضعف وتضاءل استعمالها. لذلك في سينودس الأساقفة عام ١٩٨٥ ركز على كلمة communion الشركة التي تعود إلى جوهر الافخارستيا وقلب الكنيسة النابض، فهناك يتحقق اللقاء الحقيقي العميق والخاص بين يسوع المسيح والإنسان، لقاء الربّ الذي أعطى ذاته من أجل خلاصنا. الشركة المقدسة مبدأ أساسي وإحدى العناصر المهمة في العهد الجديد، ولا يمكن لهذا المبدأ العظيم للعهد الجديد أن يؤخذ بشكل معزول ويستعمل كمجرد شعار، لأن قيمته ستقلّ ومعناه سيضعف.

هؤلاء الذين يتكلمون عن، "ecclesiology of communion" شركة الكنيسة اليوم، يقصدون عموما شيئين: ١) التوفيق بين التعددية أو الفيدرالية ومبدأ مركزية الكنيسة، إذا جاز التعبير. ٢) ويريدون التأكيد على الارتباط بين الكنائس المحلية، على أساس العطاء المتبادل، فضلاً عن التعددية في التعبير بأشكال ثقافية متنوعة في: العبادة، التعليم، والعقيدة.

بالرغم من أن هذه الميول والرغبات غير واضحة المعالم والتفاصيل، فإن مبدأ الشركة هنا يبقى محصورًا في شكله الأفقي فقط، مثل شبكة معقدة من المصالح المتبادلة. وهكذا مفهوم فقير لشركة الكنيسة وبعيد جدًا عن مفهوم شركة الكنيسة العميقة ورؤية المجمع التي ذكرناهما قبل قليل. إن هيمنة البعد الأفقي والتركيز على فكرة تقرير المجتمع لمصيره بنفسه على أمدٍ بعيد، يبقى نهجًا غير صحيح، بالتالي فإن أنصار ومؤيدي الفكرة هم أشخاص قصيري النظر ويفتقدون إلى الرؤية الواسعة التي يطلبها الإنجيل المقدس والمجمع الفاتيكاني الثاني وسينودس الأساقفة لعام ١٩٨٥، فيقول:

علاقة دم: لنوضّح أكثر مبدأ شركة الكنيسة، اقتبس مقطعين عظيمين من الإنجيل، العهد الجديد: الأول من رسالة بولس إلى أهل كورنثوس: "**كأس البركة التي نباركها أما هي مشاركة في دم المسيح؟ والخبز الذي نكسره، أما هو مشاركة في جسد المسيح؟ فنحن على كثرتنا جسد واحد، لأن هناك خبز واحد، ونحن كلنا نشترك في هذا الخبز الواحد**" (١كو ١٠: ١٦). يؤكد بولس الرسول على أصالة الشركة بمعناها العميق والحقيقي الصحيح.

إن مبدأ الشركة (communion) متجذر في قلب سرّ الافخارستيا، أكثر من أي شيء آخر، كبركة ونعمة، لهذا السبب نقول بلغة الكنيسة إننا نذهب إلى قدّاس الأحد لـ(نشترك ونتقدس معًا).

عن طريق الاحتفال الجماعي بسرّ الافخارستيا المقدس، يصبح المعنى واضحًا ومفهومًا، ولا يمكن تحقيقه بالأسلوب الأفقي المجرّد، بل من خلال الشركة ندخل في عمق السرّ وفي علاقة دم مع المسيح، لأن الدم مصدر الحياة في التقليد العبراني. هكذا تتداخل حياة المسيح مع حياتنا، ونكوّن نحن معًا أعضاء جسده، بواسطة الافخارستيا رمز العطاء وإخلاء الذات من اجل الآخر، يضحي بحياته من أجلنا. إنّ علاقة الدم المراق من أجل الآخر تشترك في ديناميكية الحياة، تنشط وتشحن وجودنا بطريقةٍ ما، لتصبح حياتنا من أجل الآخرين، نرى أمام عيوننا المصلوب والمطعون في جنبه من أجلنا في صورة الآخر.

تتحدث نصوص إنجيلية كثيرة عن أهمية ومعنى الخبز، بشكل يلفت الانتباه، فيقارنها الرسول بولس باتحاد الرجل والمرأة: **أيها الرجال أحبوا نسائكم مثلما أحب المسيح الكنيسة، وضحى بنفسه من أجلها، ليقدسها ويطهرها بماء الأغتسال وبالكلمة**" (افسس٥:٢٦)، وكذلك في (١كو٦:١٧) يقول: "**من اتحد بالرب صار وإياه روحًا واحدة**".

يسلّط الرسول بولس الضوء من رؤية عميقة ومن منظور القيامة، بقوله نحن واحد ومن نفس الخبز كلنا نشترك في السرّ المقدس. الخبز الجديد هو (المَن) الذي يعطيه المسيح بواسطة القربان، والأصح أن نقول المسيح الذي قبلنا وجعلنا جزء منه.

يوضّح القديس اغسطينوس ذلك في رؤيا حلم فيقول: "**كل خبز الأقوياء فلا تحولني إليك، بل أحولك إليّ**"، هذا يعني أنّ ما نهضمه كغذاء يصبح جزءً من جسدنا، لكن هذا الخبز الإلهي مختلف تمامًا، لأنه غني وقوي لذلك هو يهظمنا لنفسه فنتطابق مع المسيح ونصبح واحدًا معه، كأعضاء في جسد الرب حسب رؤية بولس.

نحن كلنا نتناول (نفس روح الشخص) وليس نفس الشيء، وهو ينزع منا كل فردية منغلقة، فننفتح على ذواتنا ونتحول إلى الواحد الأعظم. المسيح يستوعبنا جميعًا بالشركة معه، ونتعرف أحدنا على الآخر، نتشابه ونتطابق في شركة مقدسة لنصبح أعضاء في جسده السري.

لا شركة مع المسيح بدون شركة مع الآخرين، لا مجال بعد الآن لنعيش منعزلين أو متجاهلين بعضنا البعض، لأن الكل من أجله هو، وبالتالي فالجماعة من أجل بعضهم البعض، الواحد للآخر. فحين وعى الإنسان ذاته، قال آدم في سفر التكوين لحواء "**هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي**"، هناك شركة روحية حقيقية بكل عمق الكريستولوجيا على مرّ التاريخ الطويل.

تحدث **هنري دي لابوك** أيضًا بشكل رائع قبل نصف قرن في كتابه (**الكثلكة**) عن الموضوع: ولهذا في كل صلاة، أنظر أولاً إلى المسيح المصلوب أمامي، اسمح لنفسي أن أتغير، أتطهر بنار حبه الكبير، وأدرك أنّ في كل لقاء معه، يجمعني بالضرورة مع الآخرين على يميني ويساري، حتى مع من لا استلطفهم كثيرًا، ومع البعيدين عنّي في الزمان والمكان، في أطراف العالم وقاراته.

نعم هذا هو المطلوب مني، أن انفتح فنواجه سوية المواقف الصعبة مع الآخرين، نبرز مفهوم شعب الله لنحفز مسؤولية كل مؤمن له مهمّة خاصة وموهبة في الكنيسة. هذا هو دليل محبتي ليسوع، واتحادي بالرب يعني اتحادي مع جاري، القريب والغريب. وهذه الوحدة لا تنتهي في شركة القداس، بل هي بداية لحياة جديدة، من لحم ودم، ليس لها مثيل، فنختبر يوميًا هذا الشعور في دروب الحياة، ونتقاسم النعمة والبركة والخبرة الروحية مع الآخرين.

إنّ طريقي إلى القربان يندمج مع شركة الكنيسة دون انفصال، لأنني جزء من هذا الجسد الكبير وحياتي تعتمد عليها. الكنيسة ليست نشاطًا اجتماعيًا أو شكليًا، يُقام من اتحاد فضفاض ومبني على المظاهر، بل تنشأ من رغيف الخبز الواحد ومن ربّ واحد تقدم له الشكر والمجد لأنها الجسد النابع من الخبز الواحد والوحيد. وهي لم تنشأ من وحدة نظام

حكومي وسلطة مركزية، وليست نشاطًا رسميًا أو نقابيًا، بل تستمد قوتها ووحدتها من يسوع المسيح. وحدة الكنيسة عميقة جدًا ومتجذرة في الكرمة الحقيقية والأغصان. عندما نستوعب كل المعاني، ونفهم الافخارستيا بعمقها الروحي واتحادها المتين بين اعضائها والمحبة في شركة الربّ، نصبح تلقائيًا سرًّا مقدسًا جماعيًا في أعلى درجات الوعي والسمو والانسجام في الوجود الحقيقي.

أعظمُ القديسين البارزين في النشاط الاجتماعي، كانوا قديسين افخارستيين. نذكر بشكل سريع على سبيل المثال لا الحصر اثنين منهم: **القديس مارتن دي بوريس،** ولد عام ١٥٦٩ في ليما – بيرو، من أم سوداء من بنما، وأب اسباني من النبلاء. عاش حياته في الصلاة للربّ الحاضر في القربان المقدس، قضى لياليَ طويلة من السهر أمام المصلوب. وفي إحدى الأيام قرر أن يكرّس حياته في خدمة المرضى والمعاقين والفقراء والمحتاجين، من كل جنس ولون وعرق.

القديسة الأخرى عاشت في زمننا الحاضر، أمام عيوننا، وهي **الأم تريزا من كلكوتا – الهند،** فتحت بيوتًا لإيواء المشردين والمنبوذين والأيتام، لإطعام الجياع والمهمشين في الشوارع. وأول ما بنته كان بيت القربان المقدس، لأنها تعرف أن القوة والعزم المطلوبين للمهمّة الكبيرة والصعبة تأتي من هناك، من الربّ الحاضر في خبز القربان المقدس، لكي نراه في وجوه هؤلاء الإخوة الصغار، فقراء الروح، يقول الإنجيل في (متى ٢٥:٣٥): "**لأني جعت فاطعمتموني، عطشت فسقيتموني، وكنت غريبًا فآويتموني، عريانًا فكسوتموني، مريضًا فزرتموني، سجينا فجئتم إليّ**".

الخلاصة: أعود إلى موضوعنا عن communion، أي النقطة المهمة التي سلّطنا عليها الضوء. نقرأ في الرسالة الأولى ليوحنا: "**الذي رأيناه وسمعناه نبشركم به، لتكونوا أيضًا أنتم شركاءنا، كما نحن شركاء الآب وابنه يسوع المسيح. نكتب إليكم ليكون فرحنا كاملاً، وهذه البشرى التي سمعناها نحملها لكم، هي أن الله نور لا ظلام فيه، فإذا قلنا إننا نشاركه، ونحن نسلك في الظلام كنا كاذبين، ولا نعمل الحق، أما إذا سرنا في النور كما هو في النور، شارك بعضنا بعضًا، ودم يسوع المسيح يطهرنا من كل خطيئة" (١يوحنا ١:٣).**

يتحدث كاتب الرسالة في البداية على اللقاء مع الكلمة المتجسد، فيقول: ما رأته العيون وما سمعته الأذن، وما لمسته اليدان، فنال الشركة مع الآب والابن، هذه الشركة مع الله الحي تعيد الإنسان إلى طريق النور، إلى وصية الحب، وصية الله الجديدة. كلام يوحنا يقصد نفس مبدأ الشركة التي تكلم عنها بولس، شركة الحب والنور مع الآخرين، حين نستوعبها ونطبقها في حياتنا عندئذ نستطيع أن نقول شيئًا جديدًا ومفيدًا للعالم.

"المسيحية ليست دين كلمة مكتوبة، خرساء، بل دين الكلمة المتجسد والحي"

٢/٧ التضامن (solidarity)

المصطلح الثالث والأخير لبحثنا هو التضامن. اكتشفنا فيما مضى أن الشركة والافخارستيا مأخوذتان من الكتاب المقدس والتقليد المسيحي، بينما يأتي التضامن من مصدر خارجي! يقول الكاردينال الألماني **بول كورديس:** ظهر مبدأ التضامن وتطور في بداية نشوء الأفكار الاشتراكية، من خلال الاب "**lerou 1871 ليرو**"، ليتناظر مع فكرة النشاط الخيري المسيحي ويتحمل مسؤلية جديدة واستجابة فعالة للمشاكل الاجتماعية.

كان **كارل ماركس** قد أعلن أن المسيحية كان أمامها أكثر من ١٥٠٠ عام لتثبت مفاهيمها وأفكارها، لكنني مقتنع بما فيه من الكفاية بعدم فعاليتها، حان وقت التغيير واتباع معايير وأساليب جديدة. اقتنع كثيرون لقرون عديدة أن النظام الاشتراكي هو النموذج المثالي، لأنه يتبنى مبدأ التضامن ويحقق المساواة بين الجميع، ويقضي على الفقر والجوع ويرسي دعائم السلام في العالم. نرى اليوم بوضوح آثار الدمار الذي خلفته النظريات الاشتراكية والالحادية، واقعيًا وعمليًا وبالدليل القاطع في كل مكان في العالم. كذلك يجب ألاّ نتجاهل النظام الليبرالي واقتصاد السوق، فقد حقق انجازات كبيرة وكثيرة في بعض دول العالم وخصوصًا في البلدان التي طورتها أفكار شخصيات مسيحية متنفذة آنذاك، ولكنها تركت الباب مفتوحًا، وخلفت وراء ظهرها نزاعات ومجابهات حادة بين أقطاب العالم الرأسمالي، والمصالح الاقتصادية وخصوصًا في أفريقيا، وأدّت الى مأسي كثيرة. فالتضامن السطحي المجرد، الأحادي النظرة، يخفي وراءه أهدافًا ومصالح توسعية من أجل السيطرة وتحقيق

مكاسب اقتصادية وقيام استعمار ايدلوجي لامتلاك اقتصاد السوق. نتيجة لهذه السياسات، تمّ تدمير الهيكل الاجتماعي القديم وضاعت القيم والأخلاق، والمبادئ الروحية السامية، ولا زالت تبعاتها ترنّ في أذاننا جرس إنذار بالخطر الكبير المحدق بعالمنا.

كلا ثم كلا، بدون الله لا يمكن أن تدور عجلة الحياة بانتظام وانسجام وسلام، منذ أن كشف الله عن وجهه لنا وأعلن اسمه ودخل في شركة حياتنا، فمهما حاولنا من أبتكار طرق بديلة، فلن نستطيع أن نكمل حياتنا بدونه لأنه هو الطريق والحق والحياة.

بدون شك حملت المسيحية في الفترة المعاصرة دينًا كبيرًا وعبئًا ثقيلاً على اكتافها من مخلفات الأفكار والأيدلوجيات السابقة: العبودية، تجارة العبيد... تبقى صفحة سوداء في ذاكرتنا المسيحية. هذه التجارب تبين أن (المسيحيين) لم يكونوا مسيحيين بمعنى الكلمة! كم كانوا بعيدين عن الإيمان والمحبة الحقيقية التي يطلبها الربّ من كل واحدٍ منّا. مع ذلك كان هناك عبر التاريخ قديسون رجال ونساء، كهنة ورهبان وراهبات ذو تأثير كبير في خلق توازن مضاد، وتركوا لنا شهاداتٍ إيمانية رائعة ليس لها مثيل، من خلال الشركة الحقيقية مع الربّ ومع الآخرين، والتواضع والتضحية بالنفس، التضحية بالغالي والنفيس، من أجل التضامن مع المظلوم والمحتاج والتخفيف من آثار الاستغلال والرعب والعنف السائد في العالم بقسوة ووحشية عالم الغاب. علينا أن نستفيد من شهادات القديسين ونبني عليها لنستمر في الطريق الصحيح إلى الربّ. وهذا أدّى إلى تحول مبدأ التضامن تدريجيًا إلى المسيحية في العقود الحديثة، ونجدها في كتابات آباء الكنيسة والقديسين وفي مجال العدالة الاجتماعية.

إنّ إضافة مبدأ التضامن إلى الشركة والافخارستيا، يعني أن نساعد بعضنا ونحمل الآخرين، الأصحاء من أجل المرضى، الأغنياء من أجل الفقراء، دول الشمال من أجل الجنوب، نتبادل المعرفة والمسؤولية، الوعي والخبرات، لاننا عندما نعطي، فبالحقيقة نحن ناخذ أيضًا، نعطي مجانًا لأننا أخذنا مجانًا، وفي النهاية لا نملك شيئًا إلا وهو في خدمة مشيئته وتحقيق ملكوته وتقديس اسمه... آمين.

كل النظريات والخبرات السياسية والعلمية والمعرفية المختلفة في كل المجالات، لا تكفي لتدور عجلة الحياة بانتظام ولا تخدم الإنسانية، بل قد تضرّ وتؤذي، تجرح وتهدم وتدمر، ما دام لا يوجد في القلب صحوة روح، ويقظة ضمير، قوة من المعنى والحب الحقيقي، لتصبح كل العلوم والنظريات في خدمة الصالح العام لكي تستخدم بحكمة ووعي وإيمان للبناء والإعمار والازدهار والسعي الجاد لنكون في الطريق إلى المسيح.

كان من السهل جدًا للحركات التنويرية أن تدمر الديانات التقليدية إلى درجة كبيرة، واليوم حرمت من أفضل عناصر قوتها، وصارت تحيا على الهامش، على ثقافات فرعية وجانبية، يمكن أن تؤذي الناس والجسد والروح، بنظام من الخرافات. بات من الضروري إنقاذ جوهر هذه الديانات وانفتاحهم على المسيح، من أجل إيصالهم إلى الكمال الإنساني الذي يتوقعونه من خلالهم. تنجح مهمّة التطوير والتطهير من خلال التنمية الصحيحة والوحدة المثمرة، عندما نتبع مسار المساعدة والدعم في تطوير قوى الإيمان التي نحن بأمس الحاجة إليها.

خلال أزمات الستينيات والسبعينيات، رأى كثير من المرسلين أن عمل الإرسال وإعلان البشرى السارة لربّنا يسوع المسيح، لم يعد مناسبًا! اليوم والآن، تحول الإرسال إلى مجرد توفير خدمات طارئة، مساعدات إنسانية، لتنمية وتطوير المجتمعات. ولكن السؤال هو: كيف يمكننا تحقيق تطور إيجابي وناجح إذا بقينا (أمينين) في علاقتنا بالله؟ نفهم ضمنيًا أنه يجب على الناس أن يحتفظوا بدياناتهم، ولا نزعجهم بعروضنا المغرية، بسبب إيمان فاتر نمى في قلوب بعض الرجال بالرغم من نواياهم الحسنة. هذا يوضح بأن الشركة مع الربّ لم تكن حية وقوية بما فيه الكفاية، وإلا كيف يمكن أن يتصوروا المهمة ناجحة إذا استثنوا الناس من معرفة الحقيقة؟

السبب الأساسي لهذه المعضلة غير معروف، لكن يبدو أن الازدراء والاستخفاف من أهمية الدين بشكل عام، وبدون قصد مبيت أحترام الأديان الأخرى، لقد صوّر الدين كأنه شيء قديم من الماضي البعيد ومن تاريخ النشاط الإنساني القديم (أكل عليه الدهر وشرب) وفي نهاية المطاف لا علاقة له بالخير العام وبالهدف الجوهري في تنمية وتطوير البشرية، وتبعا لذلك فإن محتواه غير مهم أيضًا!

الاورثوبراكس (orthopraxis)، التطبيق العملي، المبني على هذا الأساس الفكري يشبه بناء بيت على الرمال! آن الأوان لنترك طرق التفكير المضللة، التي نتوه في غاباتها، ولا نصل بها إلى نتيجة فعالة ترضينا. نحتاج إلى إيمان يسوع المسيح، لأنه يجمع ويوحّد الكل، الأهداف والدين معًا، يقدّم معايير جديدة تحرر الطاقات والمواهب الكامنة في البذرة، لأن مصيرنا واحد، يتضمن تحمل مسؤولية وشركة واقتسام على كافة المستويات، المادية والروحية والاخلاقية والدينية، هذه جميعها جزء من التضامن البشري للقارات، بين المؤمنين ليعودوا إلى البرّ الأصلي الذي تطلبه محبة الله الخالق لكل المسكونة.

لهذا الهدف يلزم تطوير الاقتصاد وتنميته إلى أقصى حدّ، بحيث لا يوجد مصلحة دولة على حساب أخرى، ولا تحالف مجموعة دول ضد تحالف مجموعة أخرى، بل فقط مساواة وتحقيق عدالة وسلام في كل مكان. بالطبع هذا الكلام ليس سهلاً، ولا يمكن تحقيقه بين ليلة وضحاها، بشكل كامل، بل يتطلب عملاً جادًا ومثابرًا بلا انقطاع، وإعادة نظر في خارطة طريقنا وإجراء التعديلات المناسبة، ومعرفة التحديات التي تواجه كل حالة وموقف، وإيجاد حلول جذرية لها، والتحلي بالحكمة والصبر. كل شيء ممكن ما دام هناك روح التضامن والشركة مع الله والآخرين، الذي يتغذى وينمو بالإيمان العميق نتجاوز كل الصعوبات ونصل إلى العتبات المقدسة للملكوت.

العولمة: للعولمة علاقة وثيقة بموضوعنا، لا مجال للدخول في تفاصيلها الآن. صحيح أننا نعتمد الواحد على الآخر في عصرنا هذا، لكن هناك عولمة أحادية الرؤية، تنحاز إلى أطراف معينة لتحقيق مصالحها الخاصة، بينما يفترض أن تجمع الكل في شركة تتحمل عبء المسؤلية تجاه بعضنا البعض، وهذا لا يمكن تحقيقه بالاعتماد على آلية السوق والمصالح الضيقة، لأن القيم والمبادئ المعمول بها ليست حيادية، تنحاز إلى هذا وذاك، وتحدد الاتجاه والمسار طبقًا لمصلحتها.

لدينا أفق ديني وأخلاقي كمعيار مثالي وحاسم لقراراتنا المصيرية، فإذا لم يرافق العولمة والاقتصاد والتكنولوجيا وعيٌ عميق بأننا جميعًا مسؤولون أمام الله عن سلوكياتنا وتصرفاتنا،

ولأننا جميعًا نبحر في قارب واحد، عندها سنغرق كلنا وتكون الكارثة عظيمة في كل مكان ولن يسلم منها أحد.

برج بابل: هذه هي طبيعة المسؤولية الملقاة على عاتقنا نحن المسيحيين اليوم، لأن المسيحية تعتمد في أصولها على ربّ واحد وخبز واحد يوحدنا في جسد واحد كبير، في وحدة حقيقية منسجمة ومتصالحة مع ذاتها والآخرين. فإن لم ندرك في الوقت الراهن ماذا يعني لنا كل هذا، وإذا أصابنا اليأس والقنوط والجمود، سنجلب على أنفسنا عواقب وخيمة وثقيلة جدًا. كل وحدة تنشئ دون الله أو ضد الله ستفشل وتنتهي بكارثة، مثل قصة برج بابل التي يذكرها الإنجيل: بلبلة ودمار شامل، عنف وكراهية وصراع كوني، وما أشبه الماضي بما يحصل اليوم!

القربان سرّ الاهتداء: نعود الآن إلى سرّ القربان المقدس، ماذا حصل في الليلة الأخيرة للمسيح مع التلاميذ؟ لنستمع إلى نصّ قداس كنيسة روما:

"في الليلة قبل صلبه، أخذ يسوع الخبز، بيديه المقدستين ونظر إلى السماء، إلى أبيه السماوي، شكر وسبح، فكسر الخبز وأعطى تلاميذه، خذوا هذا وكلوا منه كلكم، هذا هو جسدي الذي يبذل من أجلكم. عندما انتهى من العشاء، أخذ الكأس وشكر وسبح الربّ، وأعطى الكأس لتلاميذه، وقال: خذوا هذا الكأس واشربوا منه كلكم، هذا هو دمي دم العهد الجديد الأبدي الذي يراق من أجلكم، ومن أجل غفران الخطايا، افعلوا هذا لذكري".

التحوّل الأول: نكتشف هنا تحول الخبز إلى جسد الرب، الخبز الارضي يصبح خبزًا سماويًا (المن) الذي ينزل من السماء ليغذي الإنسان في طريقه للاهتداء، فيتجاوز حدود الحياة الفانية ويرى أمام عينيه القيامة. فهل هذا الكلام ممكن مع الربّ الذي يستطيع أن يحول الحجارة إلى خبز، ويجعل من الحجارة أولادًا لإبراهيم؟ إنه سؤال حيّر الناس في كفرناحوم، حين سمعوا كلام يسوع الغريب. سؤال يراود أذهان كثيرين منّا اليوم. يسوع يقف بجسده مع تلاميذه، ومع ذلك يقول لهم هذا الخبز هو جسدي الذي يبذل من أجلكم. جسده يصبح هبة وعطاء وتضحية مجانية بلا استحقاق لنا، ونفس الشيء بالنسبة للخمر يقول: هو

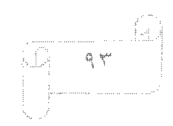
دمي الذي يُسفك من أجلكم، ولكي يعطيه لابدّ أن يُسفك، وبهذه الصورة يصبح قادرًا على الاتصال والتواصل العميق والحميم معنا دائمًا.

سفك يسوع دمه أولاً في جبل الزيتون حين اعتقلوه وعذبوه، ثم حمل الخشبة ووضعوا الشوك على رأسه وبصقوا في وجهه، ثقبت يداه ورجلاه بالمسامير على الصليب حتى تعذب ومات، وبعدها ثقبوا جنبه بحربة، فخرج منه دم وماء. هنا نجد حقد وكراهية، عنف وتعذيب وقتل بلا رحمة.

<u>التحول الثاني</u>: الذي حصل هنا هو الأعمق، فعل القتل والتعذيب والصلب يتحول إلى فعل محبة وغفران وعطاء لصالبيه: "**اغفر لهم يا أبي لأنهم لا يعرفون ما يعملون**" (لوقا ٣٤:٢٣) كل ما كشفه يسوع للتلاميذ حول مصيره، تحقق فعلاً كما جاء في الكتب، لكنه لم يقابل العنف بالعنف بالرغم من أنه قادر على ذلك، وقهر الموت بالموت وصار كله محبة. لأن الحب أقوى من الموت، وهو أكثر ما يحتاجه عالمنا اليوم! هذا الحب وحده يشفينا ويخلصنا، يتعمق فيصبح قيامة، والجسد المائت يصبح جسدًا قائمًا. يقول الرسول بولس في الرسالة إلى أهل كورونثوس: "**كان آدم الأول نفسًا حية، وكان آدم الأخير روحًا يحيي، فما كان الروحاني أولاً بل البشري، وبعده الروحاني، الإنسان الأول أرضي من التراب، أما الإنسان الآخر فمن السماء، فعلى مثال أهل السماء يكون أهل السماء، وعلى مثال أهل الأرض يكون أهل الأرض**" (١كو ٤٥:١٥).

منحنا يسوع المسيح القائم روحه وحياته هبة مجانية لنتواصل معه إلى الأبد، هذا لا يعني نهاية القصة بل يعني أن وجوده الجسدي حقق هدفه "**ورأى يسوع أن كل شيء تم**" (يوحنا ٢٨:١٩)، بدون الانتصار الباطني على الموت لن تتحقق القيامة. حضور يسوع يستمر وعطاؤه يتواصل لكنه لم يعد محصورًا في وجود مادي جسدي بل وجود حقيقي متمم ومكمل.

عندما نراجع ما حصل في العشاء الأخير نكتشف أن الصليب حاضر فعلاً، ويسوع مستعد للموت، يخلي ذاته من أجلنا فيقهر الموت. أدرك الرسول بولس واكتشف كل شيء بعمق ووضوح، فيقول عندما شعر أن أيام شهادته اقتربت: "**افتخر في يوم المسيح بأني ما**



سعيت ولا تعبت عبثًا، فلو سفكت دمي قربانًا على ذبيحة إيمانكم وخدمته، لفرحت وابتهجت معكم جميعًا، فافرحوا أنتم أيضًا وابتهجوا معي" (فيلبي ٢: ١٧).

__التحول الثالث:__ التحول الجوهري الأول يسحب بعده التحولات الأخرى، الجسد الفاني يصبح جسدًا قائمًا وروحًا محيًا، والآن يصبح حضوره الجديد من خلال الخبز والخمر، هبة الخالق وهي في نفس الوقت نتاج تعب وجهد عمل الإنسان، حصاد ثمر الأرض وقبول الإنسان ومن خلاله نرى الربّ بيننا ومعنا، هذه الهبة ليست صفة من صفاته لكنها هي نفسه، حب وعطاء وبذل ذات ولا يمكنه أن يكون غير ذلك.

__التحول الرابع:__ تتفتح الرؤية الآن للتحول ما قبل الأخير وله علاقة بالقربان المقدس الذي هو جسد ودم يسوع المسيح. نهتدي ونصبح نحن خبزه وجسده الواحد، به ومعه، ومن هنا نفهم هدف الافخارستيا: اهتداء المؤمن بتناول السرّ المقدس بثقة وطاعة وقلب طاهر، هو لمن يؤمن بشركة الجماعة: بدلاً من أن نكون متفرقين ومنفصلين أو ربما متضادين، نصبح في المسيح إخوة وأصدقاءْ، وجسدًا واحدًا، لا يفصلنا عن بعض عرق ولون وشكل، بل نفرح معًا ونحيا القيامة والملكوت.

__التحول الخامس:__ التحول الأخير يتجلى من خلالنا نحن الذين تناولنا السرّ وصرنا واحدًا معه. تتحول الخليقة إلى حياة جديدة، فردوس جميل، مساكن الله الجديدة، يسكن فينا ونرتاح فيه، ويصبح الربّ كل شيء ولكل واحد. لذلك يصف الرسول بولس هدف الخليقة الذي يبدأ من سرّ القربان "**متى خضع كل شيء للابن، يخضع هو نفسه لله، الذي اخضع له كل شيء**" (١كو ١٥: ٢٨).

سرّ القربان المقدس هو قوة الله التي تحولنا إلى عالم المحبة والسلام والفرح السماوي، لذا نصلي بالشكر للربّ الذي نحتفل به في الافخارستيا، ليساعدنا أن نحيا معناه الجوهري والروحي والمادي بعمق، نحن والعالم كله معًا في أورشليم الجديدة.

الفصل الثامن
المسكونية والكثلكة

ظهرت كلمة كاثوليك لأول مرة في رسالة القديس أغناطيوس الانطاكي إلى أزمير، في وصفه للكنيسة في بداية القرن الثاني، فيقول: "**أينما يكون الأسقف، يكون هناك الشعب. أينما يكون المسيح، هناك تكون الكنيسة الكاثوليكية**". تجتمع الكنيسة المحلية تحت إشراف الأسقف أينما يكون، ويسوع المسيح هو أسقف الكنيسة الكونية الشاملة، وحيثما يكون هناك تكون كنيسته معه. يفترض القديس أغناطيوس أن قراءه يفهمون ما يعنيه مصطلح الكثلكة مسبقًا، والتي تجمع كل الكنائس تحت جناحيها. كما أُطلقت لأول مرة كلمة **(مسيحيين)** في أنطاكية أيضًا، كما جاء في سفر أعمال الرسل ١١: ٢٥: "**ذهب برنابا إلى طرسوس، يبحث عن شاول، فلما وجده، جاء به إلى انطاكية، فأقاما سنة كاملة، يجتمعان إلى جماعة الكنيسة، فعلما جمعًا كبيرًا، وفي أنطاكية سمّي التلاميذ بالمسيحيين لأول مرة**". هكذا صارت الكثلكة تعني كل جماعة تجتمع وتؤمن بالربّ يسوع المسيح، كما يبين القديس الشهيد أغناطيوس. من هنا جاء مصطلح الكثلكة للتعبير عن عالمية الكنيسة الجامعة.

إذًا لدينا عنصران أساسيان: الأعضاء والكثلكة يسيران معًا بلا انفصال، والمسيح هو وحده الذي يجمعهم ويوحدهم، ولابدّ أن نذكر الثالوث كنعصر حاضر في خلفية الصورة، يأتي من الآب ويعمل في مجرى الأحداث، ويقود المؤمنين ويشهد لحقيقة المسيح بقوّة الروح القدس. كما نرى في يوحنا (١٥:٢٦): "**ومتى جاء المعزي الذي أرسله إليكم من الآب، روح الحق المنبثق من الآب، فهو يشهد لي، وأنتم أيضًا ستشهدون لأنكم منذ البدء معي**". كذلك في يوحنا (١٦:١٣): "**فمتى جاء روح الحق، أرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم بشيء من عنده، بل بما سمع، ويخبركم بما سيحدث**". الله يهتم بالكون كله، والمسيح يحمي ويجمع الكل لأنه يحقق مشيئة أبيه ويؤكد مركزية الكنيسة والثالوث. المسيح هو المرجع الوحيد الذي يوجّه ويقود الكنيسة لتبشّر بالرسالة إلى نهاية العالم، ولكي يصل الجميع

إلى الملك الحقيقي للعالم الذي ورثه "**اطلب فأعطيك ميراث الأمم وأقاصي الأرض ملكًا لك**" (مزمور٢:٨) وكذلك في متى (١٩:٢٨): "**أذهبوا وتلمذوا كل الأمم، وعمذوهم باسم الآب والابن والروح القدس**". سفر الأعمال ١:٨ أيضًا: "**الروح القدس يحل عليكم، ويهبكم القوة، وتكونون لي شهودًا في أورشليم واليهودية كلها والسامرة، حتى أقاصي الأرض**".

حوّل اللاهوتي الألماني Wolfgang Beinert **ولفكنك بينيرت** في كتابه العلامة الثالثة للكنيسة، وأشار إلى أهمية العلاقة الوثيقة بين المسيح والكثلكة، فيقول: نكتشفها بكل وضوح عندما نقرأ الرسالة المسيحانية للقديس اغناطيوس، ونجد في المسيح ملء كمال الحياة، والبركة والنعمة والوحي كله. والكثلكة تعني أن تُظهر الكنيسة ملء كمال قامة المسيح من خلال التواصل مع المؤمنين به وهي تصلي من أجل الجميع، وتقدم الشكر والمجد له على كل النعم وتعطي الجواب لكل باحث عن الكلمة الحقيقية.

ذكرنا في بداية الفصل أن هناك عنصرين رئيسيين في الكثلكة هما: أعضاء الجسد، وهم المؤمنين أتباع المسيح، والكون والعالم، وللتوضيح أكثر: جمع الجانب اللاهوتي والتطبيقي العملي والتجريبي معًا، الأثنان يسيران معًا بدون فصل. العنصر اللاهوتي هو هبة الخلاص وفيه يخلي الله ذاته من أجل الإنسان، هكذا هي طبيعته الباطنية، إذ يرتبط بالبشرية جمعاء لتتجه وتعانق كل الأزمنة والأمكنة في السماء والأرض. على مدار التاريخ تفاوت التركيز على هاتين النقطتين المهمتين، ولكن كانتا دائمًا تسيران وتلتقيان معًا، لأن العنصر الجغرافي والكمّي وحدهما لا يمكنه أن يعبّر عن شمولية الكثلكة.

ديناميكية الخميرة: علاقة الأعضاء بالكثلكة هي أساس التعددية والتنوع، فعامل الكمية والجغرافية لا يكفيان، لأنها منفتحة على الكل ومستعدة لقبول واحتضان الجميع، لأن مبدأها أن تجمع وتوحد. هكذا كانت منذ البداية، حتّى عندما كانت تتكون من أقلية صغيرة، من طلائع المؤمنين الأوائل في حوض البحر الأبيض المتوسط، مكان انتشارها حيث بشّر القديس أغناطيوس.

إنّ الجانب النوعي هو المهم والحاسم في الكثلكة، ومع ذلك لا يمكن لهذه الخصوصية أن تنحسر في دائرة مغلقة، بل تستمر في التفاعل الجاد والمهمّة التبشيرية المناطة بها، من خلال مبدأ **(ديناميكية الخميرة)**، التي تتغلغل في العجين كلّه لينضج ويختمر ويشعّ النور على الكل من أعلى المنارة. لذا على الكنيسة التي تريد أن تكون كاثوليكية أن تكافح وتناضل وتسعى من خلال هذا الأساس الباطني لتخرج من ذاتها وتنطلق إلى خارجها، لتصبح كنيسة كل الثقافات والألوان والأعراق لأنها كاثوليكية.

وزنات الكنيسة: يجب أن تكون ملهمة وتدرك الهبة التي تحملها بداخلها، استلمتها من المسيح مباشرة وبدورها تستثمرها وتنقلها إلى المؤمنين، وستكون قاصرة إن لم تحمل البشارة إلى الخليقة كلها، لأن الإنجيل يقول: "**اذهبوا إلى العالم كله، وأعلنوا البشارة إلى الناس اجمعين، كل من يؤمن ويتعمد يخلص، ومن لا يؤمن يهلك**" (مرقس ١٦:١٥). على الكنيسة الكاثوليكية أن تعيش وتطبق هدفها الشمولي عمليًا وواقعيًا وتجريبيًا، رغم كل الصعوبات والتحديات، ولقد أدرك الرسول بولس حجم هذه المسؤولية، فشمّر عن ساعديه وبدأ بنشر الرسالة في كل مكان ذهب إليه، حتّى عندما ألقوا به في السجون والتعذيب، في البراري والبحار، في المدن والارياف، في الجوع والعطش والاضطهاد، وفي كل أسفاره الكثيرة، ليحقق شمولية وعالمية الكنيسة، نراه يقول: "**فمن يضعف وأنا لا أضعف معه، ومن يقع في الخطيئة وأنا لا احترق من الحزن عليه**" (٢كو ١١:٢٩). يكشف القديس متّى في مثل الوزنات المهمّة الملقاة على عاتق كل من يؤمن بالمسيح، إذ عليه أن يستثمر إيمانه، وما لديه من نعمة لكي يعطي ربحًا كثيرًا ولا يدفنها في التراب كما فعل العبد الكسول في قصّة الإنجيل (متى ٢٥:١٤).

تقودنا رسالة القديس أغناطيوس حول الكثلكة والشمولية مباشرةً إلى أصل الفكرة التي استقاها من العهد الجديد، الينبوع الصافي الذي فيه كل غنى الحياة الروحية والمادية والإنسانية. نراه في حدث العنصرة، يوم الخمسين، عيد الوحي الإلهي الذي ظهر في صحراء سيناء، بعد الخروج من مصر العبودية. من هناك كانت بداية تأسيس شعب الله ونهاية العبودية بالابتعاد عن الوثنية والعالم الفوضوي، لأن الفوضى يستحيل أن تكون خلاقة يومًا

ما! في يوم الخمسين، هناك حياة جديدة تبزغ، فصح مسيحي وخروج جديد وقيامة لنا نحن اليوم، العنصرة بالنسبة لنا برية وسيناء المسيحيين، تأسيس تابوت العهد الجديد، من خلال العشاء الأخير والصليب. يذكرنا الاحتفال به كل عام بحضور الله في العهد القديم، من خلال علامات الريح والعاصفة والنار، لكن الشيء الجديد والمميز عندنا هو أن الهدية والبشارة والكلمة أصبحت مفهومة ومسموعة بكل اللغات، ولكل الثقافات شمولية وعالمية الكلمة: "**وأمتلاؤا من الروح القدس كلهم وأخذوا يتكلمون بلغات غير لغاتهم على قدر ما منحهم الروح القدس أن ينطقوا**" (أعمال ٢:٤).

ألسنة النار: هكذا نرى أن العهد الجديد يبين شمولية خلاص كل المسكونة، شعب واحد يتألف من شعوب كثيرة مختلفة ومتنوعة، تشكل الجسد الكبير والشعب الكوني، يحمل تابوت العهد الجديد بإلهام الروح القدس، ينمو وينتشر كالنار. وكذلك الشريعة (محتوى تابوت العهد الجديد)، تأخذ شكلاً جديدًا ومعنى أعمق: ما كان يحمل على الأكتاف في صندوق خشبي، صار الآن يحمل **في القلب والروح والأعماق**، ويصل إلى أبعد مما نتصور، الشيء الجوهري ينحسر في المهم.والضروري والأساسي، يتجلى ذلك في ألسنة النار التي حلّت على التلاميذ، رمز حلول الروح القدس وجوهر محبة الله الآب.

يكتشف توما الاكويني هذا المعنى فيقول: "**الشريعة الجديدة هي النعمة، نعمة الروح القدس**"، كل أشكال العبادة والطقس والقوانين والأحكام الشرعية، تختزل في الجوهري والأساسي، الحقيقي والعميق، وتندمج في النعمة التي هي محبة تسكب في قلوبنا، كما تقول الرسالة إلى كنيسة روما (٥:٥): "**رجاؤنا لا يخيب، لأن الله سكب محبته في قلوبنا بالروح القدس، الذي وهبه لنا**".

كل هذا يأتي من بعيد، من حدث العنصرة، الينبوع الذي منه ننهل كل شيء صافي وحقيقي وأصيل، كان هناك مجموعتان: بطرس والتلاميذ الأحد عشر من جهة، نقصوا واحدًا بسبب خيانة يهوذا وعوّضوا عنه بالقرعة، وبالهام من الروح القدس اختاروا **متياس**، ليكمل الرقم ١٢ كما يذكر سفر الأعمال ١٥:١. في سرده لقصة العنصرة، لا يذكر القديس لوقا الاثني عشر بل يقول: "**وكانوا كلهم مجتمعين في مكان واحد**" ربما لأنه ذكر اسماءهم فردًا

فردًا في بداية الفصل، وقال إن مريم أم يسوع كانت معهم أيضًا، ويذكر أن أخوته (أقرباءه) كانوا مجتمعين في العلية يقيمون الصلاة معًا بقلب واحد. من الجهة الثانية كان يقابلهم مجموعة من الحجاج **"الذين جاءوا من كل أمة تحت السماء"** (أعمال ٢:٥)، فيتوجه الإنجيل مباشرةً إلى كل الناس في الأرض، الحاضرين في مكان الحدث الإلهي. هذا الوصف الدقيق اللاهوتي للقديس لوقا مهم بالنسبة له لأنه مؤرخ عميق المعاني والدلالات، وهو مهم أيضًا لأنه يوثق بأمانة أدقّ التفاصيل فيذكر قومياتهم وأسماءهم ودولهم التي جاءوا منها، يتحدث عن قائمة من اثني عشر شعبًا: أول ثلاثة هي أسماء **لشعوب**، ثم أسماء **دول**، بعدها يذكر التسميات بشكل **زوجي**، ثم الرومانيين وحدهم، وأخيرًا يعود إلى التسميات الزوجية **"يهود ودخلاء، كريتيون وعرب"** (أعمال ٢:٩). التسميات الأخيرة وُضعت من أجل الشمولية وإكمال العدد ١٢، لكن تسمية اليهود والمتهودين لا يقصد بها شعوب معينة إنما الديانات التي ينتمون إليها وقد انضموا الى الكنيسة الجامعة، وهم من اليهود شعب الله المختار، والدخلاء هم الجليليون الذين اهتدوا إلى اليهودية، إلى إله اسرائيل الواحد لكل البشر. بعد ذلك الكريتيون والعرب الساكنون في الصحراء ويقصد التقاء العالم الشرقي والغربي، الكل يجتمعون معًا كأخوة في المسيح.

ناقش المفسرون والباحثون في الكتاب المقدس أصل قائمة الاثني عشر، كشعب وأمة، وتوصلوا إلى أنها جُمعت بهذه الصيغة والترتيب لتشمل القائمة كل شعوب الأرض، وتعمدوا إكمال العدد ١٢ من قبل المؤرخين القدماء للاسكندر الكبير وكبار مستشاريه. ويضيف لوقا الانجيلي الرومانيين، لأن سفر الأعمال ينتهي في روما، وبهذا يريد القول إن البشارة وصلت إلى كل شعوب الأرض. ويعدد لوقا التسميات بشكل زوجي دائمًا رمز **شركة الجماعة**، ويعلن افتتاح الكنيسة الجامعة في جهات الكون الأربع، لهذا السبب يسمي القديس اغناطيوس الكنيسة كاثوليكية في رسالته لاحقًا.

الرسل الاثنا عشر أيضًا رمزٌ للمستقبل الجماعي الشامل، نراه حاضرًا أمامنا، واختيار يسوع اثني عشر رسولاً يعود بنا إلى أبناء يعقوب، آباء إسرائيل. وفي الوقت نفسه، يصبح الرسل آباء الشعب المسكوني الشامل، الكبير والجديد. ولا يجب أن يفوتنا ذكر رمزية العدد

١٢ الكونية، الكواكب الاثني عشر، لكي ينسجم ارتباط الكون السماوي مع الأرضي من خلال هذا الترتيب الكتابي السائد آنذاك.

هذا يثبت بالدليل القاطع عدم صحة الرأي العام القائل بأن الكنيسة المحلية الأولى تشكلت في العنصرة. هذا غير صحيح، كما رأينا في بحثنا، لأن الكنيسة منذ بدايتها في أورشليم، كانت جامعة وشاملة. وتوسعت خطوة بعد أخرى حتى امتدت لتشمل كل بقاع العالم. العدد ١٢ لا يرمز إلى عدد كنائس مدن أورشليم، ولكنه يرمز إلى الدول والشعوب التي وصلتها البشرى السارة، كما وصفه حدث العنصرة لكل الأجناس والألوان والأديان التي كانت حاضرة، وهي كاثوليكية منذ بدايتها. ما يريد القديس لوقا إيصاله لقرائه هو أن الكنيسة ثنائية الأبعاد، كانت منذ البداية جامعة شاملة كاثوليكية، تلد الكنائس المحلية، وتلد كنيسة أورشليم المحلية مع كل ما لها من أهمية في الإرث العقائدي. الكنيسة ببعديها الثنائي النوعي والشمولي هي شعب الله الجديد، هي جامعة ومقدسة للكل مهما كان عدد اعضائها صغيرًا أو متواضعًا، فهي أم ومعلّمة كل الأجيال.

العنصرة وبرج بابل: يصوّر القديس لوقا الحدث عمليًا في البداية ويعطيه طابعًا اقليميًا، فنرى الأمم كمظهر مهم لكاثوليكية الكنيسة. ونظرة معمقة للنص تبين أن الحدث يناقض قصة برج بابل في سفر التكوين. فالإنسان قبل هذا التاريخ ينتهي هناك، وتتهشم الوحدة الأنانية والمزيفة التي كان البشر يريدون تحقيقها، لكن الله بنفسه يحطمها لأنها مبنية على أساس المصالح الضيقة وإنكار وجود الله. لذلك تنتهي المرحلة الأولى من شمولية التاريخ الإنساني في الفصول الإحدى عشر الأولى من سفر التكوين، بالبلبلة والتناحر والانقسام والفوضى وعدم الانسجام، كما يقول اللاهوتي الالماني **كيرهارد فون راد:** الكتاب المقدس يفتح صفحة جديدة بعد ذلك، ولا يتحدث أي شيء عن تاريخ وأصل الإنسان، ولكنه يخبرنا فورًا عن قصة **اختيار ابراهيم**، دعوته ودوره في تاريخ الخلاص، وهو يبدو لأول وهلة كأنه محدود وليس جامعًا وشاملاً.

البلبة في الفصل ١١ تترك السؤال بنهاية مفتوحة، بالرغم من ظهور ملامح بسيطة لشمولية الخلاص في بداية دعوة ابراهيم، إلا أنه يبقى وعدًا يتحقق في المستقبل وليس جوابًا

آنيًا. وعلى قارئ الكتاب المقدس أن ينتظر ويكمل الرحلة ويتابع الأحداث إلى أن يصل إلى العنصرة. هناك يعود إلى السؤال الذي يطرحه الكتاب المقدس، البلبلة والانقسام تتحولان إلى الوحدة والشمولية وعالمية الكنيسة. الله يبادر مرة أخرى وبيديه يجمع الكل، ويصبح يسوع جسرًا منه وإليه، فيعود الخلاص للجميع في حدث العنصرة لكنه مختلف هذه المرة، فالوحدة القديمة كانت مشوهة ومنغلقة على شعب واحد ولغة واحدة، ولا وجود فيها للتعددية والحياة المشتركة التي يريدها الخالق لنا. هم يبنون لأنفسهم وليس للربّ، يبحثون عن الشهرة والخلود من دون الله، يعتمدون على قوة إمكاناتهم وكبريائهم ولا وجود للمحبة والعطاء. يقول النص في تكوين (١١:٤): "**تعالوا نبني لنا مدينة وبرجًا رأسه في السماء، ونقم لنا اسمًا، فلا نتشتت على وجه الأرض كلها**". من يفكر بهذه الطريقة متكبر ومغرور بنفسه، أناني ومقطوع من أصله وجذوره ورسالته وعلاقته مع الله والآخرين. إنها وحدة هشة تكنلوجية مادية مجردة، ليس لها معنى وطعم ورائحة طيبة، إنه العالم الذي تقوده الوحدة المشوهة حسب رغباته ومصلحته، يريد لغة وثقافة واحدة، فكر وكلام واحد، يلبس يتصرف ويضع قوالب وقوانين متطرفة. هذا النوع من التطرف الأعمى يخلق عنفًا وتمردًا وانقسامًا وعصيانًا، بأشكال وألوان كثيرة، يعترض على التنوع في الطبيعة التي خلقها الربّ ولتعطيه كل شيء جميل وحقيقي ومعنى وجود. يتمسك بالقشور ويفرض أيدلوجياته بالقوة، والنتيجة معروفة وكارثية. كم هو عميق وعظيم فكر الكتاب المقدس، حديث ومعاصر لكل زمان ومكان.

إنّ الوحدة التي يعرضها حدث العنصرة تختلف جذريًا لأنها تُبنى على المحبة والتعاون وقبول الآخر في جميع اللغات والثقافات والقوميات. وفي حفظ التنوع والتعددية يغني بعضها البعض وتبني شركة حقيقية ويعمل الكل من أجل تحقيق مشيئة الربّ، وحدة الله فريدة من نوعها، والفائدة تعود على الكل، لذلك أعطانا مواهب عديدة ومختلفة، ليبرهن على محبته لنا ونعرف قيمة وجمال ومعنى وحلاوة العيش المشترك.

التوبة والاهتداء: يصف القديس لوقا ردّ فعل المستمعين إلى خطبة بطرس بشكل رائع وجميل فيقول: "**ولما سمع الحاضرون هذا الكلام، وخزتهم قلوبهم، وقالوا لبطرس وسائر**

الرسل ماذا يجب علينا أن نعمل أيها الأخوة؟، فقال لهم بطرس توبوا وليتعمذ، كل واحد منكم بأسم يسوع المسيح فتغفر خطاياكم وينعم عليكم بالروح القدس" (أعمال ٢:٣٧).

الكلمة اليونانية katanyssomai تعني وخز أو طعن، عندما يطعن القلب بسهم الحب ينفتح على الله والآخرين، يتوقف الزمن، يكتشف الإنسان الأبدية، يرى بوضوح كل شيء، لأنه يلتقي حبّ حياته وروحه ووجوده الحقيقي الذي كان في انتظاره. هذا بالضبط ما حصل في العنصرة، فالاهتداء والمحبة تجمعان شمل شعب الله الجديد، تلغي الفوارق والحدود القديمة، فلا يعد أحد غريبًا بعد، تلاشى الشك والخوف من المجهول، والإيمان العميق والعلاقة القوية بالربّ تطمئن القلب والروح، ودعوة الله تتجاوب مع الإنسان وتنفتح أمامه أبواب الحاضر والمستقبل، فيقول من دعا باسم الرب يخلص: **"لأن الوعد لكم ولأولادكم ولجميع البعيدين بقدر ما يدعو منهم الرب إلهنا "** (أعمال ٢:٣٩)، لا يوجد وجه للمقارنة بين الكثلكة وبرج بابل بتاتًا.

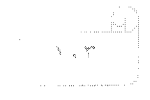
صراع الحضارات: نعيش اليوم تحت ضغط وتأثير العالم التكنولوجي، المتكبر بتقدم علومه، والمتفاخر بقوة اختراعاته، وغاياته تبرر وسائله النفعية. يبدو أن نموذج بابل موجود في كل زمان ومكان، وليس فقط في التاريخ القديم، ولا يمكن اكتشافه إلا من بعيد بعيون القلب والإنجيل وبرفقة يسوع المسيح. عالم اليوم تتصاعد فيه المظاهرات والانتفاضات، حركات تمرد وعصيان، انقسامات في كل بقعة من العالم إلى درجة خطيرة. يتحدثون عن اصطدام الحضارات وهكذا يسمّونها، صراع دموي يدمّر الحياة الإنسانية، رغم ذلك لدينا نموذج الإنجيل الذي يجمع ويوحّد الحضارات، يبني الثقافات ويكمل ويربي، يحفظ ويحترم، يستوعب ولا يلغي أو يتجاهل أحدًا. على خطبة بطرس في العنصرة أن تستمر في عصرنا الحالي رغم كل التحديات والاتهامات من المعارضة، يجب أن ندافع عن المهمة المناطة بنا بعزم لأنها البديل الحقيقي الوحيد والفريد لصدام الحضارات، والكثلكة هي الشكل الحقيقي للوحدة الشاملة كما يفسرها آباء الكنيسة القديسين. هي وحدة القلب والفكر من قلب الله المفتوح والمنفتح لكل ما هو أصيل ومفيد وغني، له مكان فيها وينفع الكل، وحدة الله ترفض كل ما هو غريب ودخيل وسطحي وشاذ.

البيت الكبير: كاثوليكية الشعب الجديد بمعناها الواسع هي البيت الكبير الواسع والرحب، إذ يقول الربّ: "**لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي أيضًا. في بيت أبي منازل كثيرة، وإلا لما قلت لكم، أنا ذاهب لأهيئ لكم مكانًا، ومتى ذهبت وهيأت لكم مكانًا، أرجع واخذكم إلي لتكونوا حيث أكون أنتم تعرفون الطريق إلى حيث أنا ذاهب**" (يوحنا١٤: ١-٥)، هذا البيت الكبير هو سكن الكثيرين وليس برج بابل، الكثلكة هدية الرب إلى الكنيسة الجامعة، وهي علامة طريق نتعرف من خلالها على المعنى الحقيقي للحياة والفرح الإلهي. علينا أن نستمر جاهدين في مهمتنا لتحقيق هذا الهدف، وهي مهمة استمرت عبر التاريخ ولم تتوقف في أقسى الظروف لأنها راسخة في أصلها وجذورها العميقة.

من خلال التوتر بين الهدية المعطاة للكنيسة والمهمة التي على عاتقها وتحيا ونحيا معها أيضًا. هذا التوتر معيار ومقياس علينا أن نسمح لأنفسنا بقبوله والخضوع له ليقيّم حياتنا، وهو ما سنحاسب عليه في مساء هذه الحياة.

ختامًا أهدي هذه السطور إلى الكاردينال جنتن، بمناسبة عيد ميلاده الثمانين، وهو بالنسبة لي مثال للكاثوليكي الأصيل والمتجذر في ثقافة بلده، وهو الآن في كنيسة وطنه (دولة بنين)، يتحدث بجميع اللغات ويحاول جمع وتقارب وتفاهم الجميع فيما بينهم. أقدم له كل الشكر والتقدير من خلال هذه الدراسة المتواضعة، على كل ما تعلمته منه خلال عملي معه لسنوات طويلة في رحلتنا المشتركة إلى لقاء الرب يسوع المسيح.

((عليكم أن ترتبطوا بأسقفكم كارتباط الاوتار بالقيثارة، وتكونوا في وحدة لا تشوبها شائبة، وحدة دائمة مع الله)) (اغناطيوس الانطاكي)



الفصل التاسع

هل تعليم الكنيسة الكاثوليكية معاصر؟

٩/١ تأملات في كتاب التعليم المسيحي بعد ١٠ سنوات من إصداره

في عام ١٩٩٢ قدّم البابا يوحنا بولس الثاني للعالم المسيحي كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية مرفقًا بإرشاد رسولي بعنوان "وديعة الإيمان" fidei depositum، وجاء استجابةً للظروف التي نمرّ بها وللردّ على بعض المتشككين بل المعترضين من المثقفين المسيحيين الكاثوليك في العالم الغربي. كما أن مصادر التعليم المسيحي التي كانت معتمدة حتى ذلك الحين كانت غير مناسبة ولا تواكب التطور الحاصل في الحياة، فجاء لينشط الايمان ويعمل على صحوة وعي تنسجم مع النتائج التي خرج بها المجمع الفاتيكاني الثاني.

كانت محاولات كثيرة قدْ بدأت بإعادة النظر في الأساليب والطرق المتبعة وخصوصًا في مجال الليتورجيا، للاستفادة من المعاني العميقة والدراسات الغنية الرائعة التي خرجت إلى النور في المجمع، ولمعالجة تطبيقها الضعيف بشكل عام. وكان السؤال: هل المناهج المعمول بها في التعليم المسيحي لا تزال فعّالة ومفهومة بعد التغييرات الحاصلة في حياتنا ورؤية الفاتيكاني الثاني؟ ماذا الذي يمكن تعديله والحفاظ عليه؟ كان المؤمنون والكهنة يترقبون صدور كتاب تعريفي جديد، يعيد النظر في أساليب التعليم المسيحي التي تعبّر عن العقيدة الكاثوليكية، حسب الخط المرسوم لنتائج الفاتيكاني الثاني. وكان هناك فريق من اللاهوتيين وخبراء في التعليم معارضين لهذه الخطوة لأسباب باتت معروفة وهي أن الأفكار الجديدة تحتاج إلى مساحة كافية للتجربة واختبار نجاحها قبل العمل الفعلي بها. مثل هذا الطرح يناقض الإيمان وحرية الفكر واستمرار الرؤية، لأن الإيمان ليس وقودًا خامًا لاجراء التجارب الفكرية عليه، بل هو الأرض الصلبة التي من أجلها نحيا ونموت، (hypostasis) الأقنوم كما تقول الرسالة إلى العبرانيين: **"الإيمان هو الوثوق بما نرجو وتصديق ما لا نراه، وبه شهد الله للقدماء"** (عبر ١١:١).

وكما أن العلم لا تعرقله الثوابت العلمية التي تم اكتشافها سابقًا، بل يعتمد ويبني عليها في تقدمه وتطوره، كذلك ثوابت الإيمان تفتح لنا دائمًا آفاقًا جديدة وأبعادًا واسعة، للنمو والتعمق أكثر، لأن الانغلاق على الفكر التجريبي والتقليدي السائد، يصبح مملاً في النهاية. كذلك من الضروري أن نقدم الشكر والامتنان والتقدير للتعاون الذي عملت به الكنائس المحلية معًا، بجهود الأساقفة والكهنة والمعلمين والعلمانيين، في بلورة أفكار هذا الكتاب.

كان هناك معارضون ومنتقدون للفكرة بحجة أن إصداره تمّ بأسلوب مركزي وأفكاره تعود إلى فترة ما قبل المجامع، وهو عقائدي صرف وجامد والمفروض أن يكون بأسلوب حواري، وبأنه ليس تفسيريًا وغير قابل للنقاش... الخ، لقد صوّروا الكتاب بشكل مرعب، وهذا تناقض صارخ للحقيقة التاريخية ولمحتوى الكتاب.

وقالوا أيضًا إن التعليم المسيحي نام في سباتٍ عميق لقرون طويلة في الماضي وانشغل في التفسيرات الكتابية واللاهوتية، وأنه ليس مسكونيًا! ولا صلة له بالموضوع. هذه الآراء كانت في حينها طبعًا، ولكن الموقف تغيّر جذريًا اليوم بعد عشر سنوات من إصداره.

"المعنى الحرفي يعلم ما يحدث وما حدث، والمجازي يعلم ما يجب الايمان به، والادبي ما يجب عمله، والتفسيري ما يجب التوجه اليه" (ت.ك.ك. ١١٨)

٢/٩ أهمية وحدود كتاب التعليم المسيحي

لكي نوضح الرؤية ونضعها تحت النور، ومن أجل فتح حوار مع المفسرين إلى العمق الذي يذهبون إليه، يجب أن ناخذ في الحسبان الجنس الأدبي لطبيعة كتاب التعليم المسيحي: فهو ليس كتابًا عن اللاهوت بل عن الايمان، يتضمن إرشادات ونصائح لنمو الايمان، وهذا الفرق غير معرّف بما فيه الكفاية في الفكر اللاهوتي الحالي.

اللاهوت لا يخترع الإيمان، بواسطة التأمل الفكري أو التحليل العقلي لمن يؤمن أو لا يؤمن، وإن آمن بناءً على هذا الفكر عندها يصبح الإيمان كله من نتاج فكرنا الشخصي المجرّد ولا يختلف بشيء عن فلسفة الدين. اللاهوت في مفهومه الصحيح محاولة اكتشاف

الهبة والهدية المجانية التي أُعطيت لنا مسبقًا، واللاهوت يساعدنا في الوصول إليها والتعرف عليها عن قرب، وهو لا يخترعها بتاتًا. يعبّر القديس اغسطينوس عن هذه الحالة بشكل رائع فيقول: "**أنا أؤمن لكي افهم، وأفهم لكي أؤمن أفضل**" (ت.ك.ك. ١٥٨).

جوهر اللاهوت هو العلاقة بين هبة الله لنا من خلال إيمان الكنيسة، وبين جهدنا لقبول واستيعاب وهضم هذه الهبة بمفهوم منطقي وفكري ووجداني. والتعليم المسيحي وُجد من أجل هذا الهدف: ليساعدنا بأساليب تربوية وإيمانية واضحة لننهل من الكنيسة الكلمة الإلهية. لذلك هو إعلان البشارة وليس اللاهوت بحدّ ذاته، والفهم والتفكير الطبيعي **جزء من أي طرح** مناسب لتعليم إيمان الكنيسة لكي يستوعب اللاهوت. مع أن هناك تباينًا بين الإعلان والشهادة وبين الرؤية اللاهوتية التي لا يمكن أن نهملها.

تعرفنا الآن على الجنس الأدبي لطبيعة التعليم المسيحي وهو أسلوب تربوي لغوي يسير من أجل الوصول إلى هدف معين، وليس نقاشات وجدالات أو مناظرات كلاسيكية للبحوث اللاهوتية. ينبع إعلان الإيمان من يقين داخلي باطني، ينقل من خلال قنوات، خبرات وتجارب من شخص إلى آخر. الكلمة المعطاة تبقى هنا مختلفة ومتميزة عن لغة العقل التي تتطلب براهين واثباتات مادية علمية. إنها اليقين الصادر من النور الإلهي، أعظم من اليقين الصادر من نور العقل الطبيعي! هناك عنصر ثاني مهم له دور في التعليم، وهو القارئ الذي يتوجه إليه الكتاب ونوع الحوار وكيف يتجاوب معه وإلى أي مستوى يريد الوصول به.

في القسم الثالث من الإرشاد الرسولي، هناك القيمة العقائدية للنص، فيضيف البابا: الفئات التي يتوجه إليها الكتاب: الكهنة والمعلمين، المشاركين في الحركات المسكونية ونشاطات التعليم المسيحي، وكذلك المؤمنين بشكل عام، وأخيرًا يقول البابا: "**هذا الكتاب يوفر لكل فرد يسألنا، لكي نعطي مقدارًا من الرجاء الذي فينا**". والكتاب أيضًا لمن يريدون أن يتعرفوا على إيمان الكنيسة الكاثوليكية.

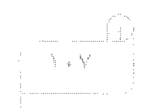
يقول القديس بطرس في رسالته الأولى: "**قدسوا المسيح في قلوبكم، وكرموه ربًا، وكونوا في كل حين مستعدين للردّ على كل من يطلب منكم دليلاً على الرجاء الذي فيكم، وليكن**

ذلك بوداعة واحترام" (١٥:٣). الكتاب ليس موجهًا لنخبة من المتعلمين فقط، بل هو لكل المستويات والأعمار والثقافات والقوميات في العالم. بالطبع لا يستطيع الكتاب تقديم كل شيء في مجال التواصل وطرق وأساليب التعليم، فلابدّ من الاعتماد على الإضافات والاتصال المباشر والعلاقة الحية مع المتلقي، حسب شكل ونوع ومستوى كل حالة وموقف على حدة من أجل معرفة أفضل لكنوز الخلاص الإلهي. فعلى سبيل المثال، لا نستطيع أن نتبنى أسلوبًا واحدًا ونعممه على الكل. فالأسلوب الغربي مثلاً ضعيف وغير مفهوم في إيصال الرسالة بالنسبة للثقافات الأخرى المختلفة، لذلك لا يجوز الانغلاق في نطاق ثقافي محدد، بل علينا الانفتاح وإعطاء مساحة من الحرية للابداع والارتقاء إلى (**العلية**)، إذا جاز التعبير، لكي نخاطب كل إنسان كإنسان، ونترك للكنائس المحلية تقدير ما تراه مناسبًا بحسب تقاليد وثقافات كل حالة. بالحقيقة إن التعليم المسيحي يحظى بقبول وتأييد واسع منقطع النظير في دول وثقافات متنوعة، وهذا يدل على نجاح الجهود المبذولة لجعل الكتاب مفهومًا على كل المستويات.

يجب ألاّ نقحم الكتاب في جدالات ومناظرات عقيمة لأننا لا نستطيع أن نعبّر عن متطلبات الإيمان بلغة وثقافة واحدة حصرًا، لذلك تمّ تأليف هذا الكتاب لتفادي وقوع وحدة الإيمان والكنيسة والإنسانية في خطر الانجراف إلى نوع من الوهم والخيال، بغض النظر عن كل التحديات والمشاكل المنهجية.

ماذا عن علاقة العقيدة بمضمون التعليم المسيحي؟ إذا أردنا أن نعطي جوابًا شافيًا، علينا أن نقرأ الكتاب كله من البداية إلى النهاية، عندها نستطيع أن نكتشف الأمور الثمينة والعميقة التي خرجت إلى النور من مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني، وهذا ما يحفز البحوث اللاهوتية في مجال اللاهوت المعتدل. من المفيد أيضًا أن نبحث في أفكار مختلفة خلال العمل كله مثل: المسكونية، الإيمان والطبيعة، الرموز والعلامات، العلاقة بين اسرائيل والكنيسة، عالم الإيمان وعالم الأديان. لذلك اكتفي بطرح بعض النقاط والأمثلة التي لعبت دورًا مهمًا في المناقشات العامة.

"**العهد الجديد مختبئ في العهد القديم، وفي العهد الجديد يكتشف العهد القديم**"



٣/٩ التعليم المسيحي في نصوص الكتاب المقدس

بلغ حجم النقد لكتب التعليم المسيحي في تناولها للنصوص المقدسة حدًا كبيرًا. وزعموا أنه نام قرونًا طويلة وانشغل بالتفسير، وأنه بسيط ومحدود وحرفي ويركز على حدث يسوع التاريخي، ويستشهد بنصوص وآيات كثيرة... الخ، من أجل هذه الأسباب، كان من الضروري الاهتمام بموضوع التعليم المسيحي، وكيفية التعامل مع الحدث التاريخي والتفسير النقدي.

عند الإعداد لعملٍ من هذا النوع، يفترض أن يقدم للمتلقي إيمان حيّ وليس مجرد فرضيات وأفكار جاهزة، ليحمل معنى عميقًا ويكون مرجعًا أصيلاً لتلقين العقيدة الكاثوليكية، فكان من الضروري الأخذ بالحسبان التغيير الكبير الذي حصل في التفسير، في زمن النظريات والأفكار الجديدة، كما يقول البابا في الفصل الثالث من الإرشاد الرسولي. لهذا خصص الكتاب فصلاً خاصًا (الفقرات ١٠١-١٤١)، للتأمل في موضوع التعامل السليم مع النصوص المقدسة عند الشهادة للإيمان المسيحي. تمّت مراجعة هذه التفاسير بدقة لتكون خلاصة ناجحة لروح وطبيعة النصوص، وهي ليست مجرد حدث تاريخي بل لاهوت أيضًا. فما هي هذه النصوص والأسفار والكتب الأدبية المتنوعة؟ كيف جمعت معًا وأصبحت بعد أكثر من ألف عام كتابًا مقدسًا واحدًا تمّت ترجمته إلى كل لغات العالم؟

متابعة هذا السؤال يكشف لنا ملامح فهم الوحي الإلهي والإيمان المسيحي بوضوح.

الإيمان المسيحي: يتكون من قصص وحوادث تاريخية حقيقية ومتماسكة، تشترك في الهدف الذي كتبت من أجله بإلهام من الروح القدس، في مراحل زمنية مختلفة. لذا من الضروري أن نعطي اهتمامًا واسعًا لواقعية وحقيقة الحدث التاريخي، بالرغم من أهميته للإيمان، ونفهم أن الله نفسه يتدخل في الحدث التاريخي، يؤثر ويتأثر، بطريقة خاصة لكل حدث وحكاية، ويحمل فيضًا من المعاني والقيم، لكي يتجاوز الزمن والحدث التاريخي. فتتوجه الكلمة في الحاضر إلى كل الناس ولكل زمان ومكان.

هذا الفيض لا يمكن فصله عن الحقيقة والواقع والوجود، ولا يعني أنها تفرض نفسها عليه بل هي الحقيقة حاضرة في الحدث الكتابي، وهو متجذر في صميم المكان ويتجاوز الزمن، وهنا تكمن أهمية كل قصص الإنجيل. ينعكس كل تاريخ بنية الإنجيل في كل سفر من الأسفار لأنها إيمان معاش وخبرات وتجارب إنسانية غنية على طول مجرى التاريخ، والتاريخ ليس مجرد معلومات عن حوادث وفعاليات شعوب عانوا وانجزوا أو تصرفوا فقط، بل هو الله نفسه يتكلم في الحدث التاريخي من خلال هذه الحكايات. شخصية الكاتب مهمة أيضًا وفيها نميّز ثلاث مستويات: **أولاً الكاتب الفردي وثانيًا قبول ودعم الشعب له بشكل عام**، وهذا دليل على استمرارية تطور الكتاب المقدس، مع الأخذ بالحسبان مصادر النقد التي قدمت لنا معلومات ثمينة لرؤية جديدة وفهم أعمق يتجاوز فكر كل كاتب فردي على حدة. **وثالثًا الإلهام**، لأنه ليس الكاتب وحده الذي يتحدث ولكن النص يتطور على ضوء الرؤية الجديدة، لأن الوحي هو الذي يجمع رؤية كل المؤلفين، والروح يقود الفعل والحدث من وإلى الكلمة.

إذا تأملنا تطور أحداث الإنجيل التي أصبحت أسفارًا، وهي تضمّ خطوطًا أولية، نكتشف فورًا أن تفسيره مهما كان مستقلاً عن الإيمان فسيكون مركبًا جدًا، لأن من يعيش في إيمان الناس وقلب الحدث، عليه أن ياخذ بالحسبان أن يفسر بأساليب تؤثر في ذلك المكان، حينها فقط نستطيع التكلم على تفسير لاهوتي لا يلغي بطبيعة الحال ذلك التاريخي، بل يوسعه ويعطيه بعدًا أعمق ومعنى جديدًا. وهكذا تصبح الرؤية قيمة مضاعفة من خلال التفسير السليم للكتاب المقدس.

لكن على هذا الجنس الأدبي الواحد في الكتاب المقدس أن يطعم بأشكال وأساليب منهجية أخرى. في الفقرتين ١٠٩-١١٠ اقتبس المقطع deiverbum باللاتيني يعني **كلمة الله**، فيقول فيها: **"لكي يستخلص المرء نية الكتاب الإلهيين، لابدّ من النظر إلى أحوال عصرهم وثقافتهم، والأساليب الأدبية المتبعة آنذاك، وإلى طرائق الشعور والكلام ورواية الأخبار الشائعة لذلك العصر، لأن هناك طرقًا مختلفة أخرى تعرض بها الحقيقة ويعبر عنها في نصوص تختلف تاريخيًا، نصوص نبوية أو شعرية أو حتى في أنواع تعبيرية أخرى". "في الكتاب المقدس يكلم الله الإنسان على طريقة البشر، فلكي يُفسر الكتاب**

تفسيرًا جيدًا، لابدّ من نقل ما أراد الكتاب البشر في الحقيقة أن يثبتوه، وما حسن لدى الله أن يكشفه لنا في كلامه".

كما يؤكد وحدة العهدين القديم والجديد، فيقول: "**التنبه الشديد لمضمون الكتاب كله ووحدته: لأنه مهما اختلفت الأسفار التي يتألف منها الكتاب المقدس فهو واحد، بسبب وحدة قصد الله، حيث المسيح يسوع مركز قلبه المفتوح منذ فصحه، قلب المسيح يدل على أن الكتاب المقدس الذي يعرف بقلب المسيح، هذا القلب كان مغلقًا قبل الآلام، ولأن الكتابة كانت غامضة، لكنها تفتحت بعد الآلام، إذ أن الذين فقهوا كنهها، يقدرون ويميزون الطريقة التي يجب اتباعها في تفسير النبوأت**" (١١٢، توما الاكويني). نجد المعنى ذاته في إنجيل لوقا (٢٤:٢٥): "**ما أغباكما وأبطاكما عن الإيمان، بكل ما قاله الأنبياء، أما كان يجب على المسيح أن يعاني هذه الآلام ويدخل في مجده، وشرح لهما ما جاء عنه في جميع الكتب المقدسة من موسى إلى سائر الأنبياء**".

من طبيعة هذا الأدب المركب الذي ندعوه الكتاب المقدس، يجب أن ندرك أننا لا نفهم المعنى الكلي من قراءة نص فردي أو سفر واحد للمؤلف الأول، حتى وإن افترضنا أنه يقصد التحدث تاريخيًا. كل النصوص هي مثل سلسلة متشابكة تشترك في استمرارية الحدث الذي يتجلى ويرتبط بنفس الهدف، لذلك لا يوجد نص ينتمي إلى تاريخ مؤلف واحد، لأن له خصوصية وطبيعة أدبية لا تقبل أن نضعه في خانة مرحلة تاريخية معينة. الغاية من تسلسل الأسفار هي أن نجد الحاضر في ضوء الكلمة التاريخية والانفتاح للمستقبل.

إن التفسيرات المتعددة المعاني والأبعاد لعقيدة الأسفار المقدسة التي نظمها وطورها آباء الكنيسة الأوائل في العصور الوسطى، هي مناسبة لنا اليوم للتأمل في شكلها وطبيعتها العلمية الفريدة، ومعناها المعبر بعمق ووضوح عن الأسفار المقدسة ونميّز أربعة أبعاد وهي:

أولاً: البعد الحرفي وهو المعنى التاريخي الذي نحاول تعقبه والمسك بخيوط الرسالة في اللحظة التاريخية التي جاء فيها النص إلى الوجود.

<u>ثانيًا: المعنى المجازي</u> لسوء الحظ غالبًا ما تشوّه هذا المصطلح أو مفهومنا عنه، والمعنى الحقيقي كما يريد أن يقول النص: إن الكلمة التاريخية المعطاة في حدث معين بالإيمان، لا تزال تضيء بنورها وتتكامل مع معاني ونصوص الكتاب المقدس بمجمله، لذلك تتجاوز الماضي لأنه في كل الاوقات هي دعوة من الله وإلى الله.

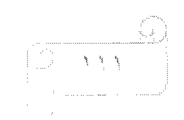
<u>ثالثًا: البعد الأدبي والأخلاقي</u> كلمة الله هي دائمًا علامة طريق تدلنا نحو الحقيقة.

<u>رابعًا: البعد الاسكاتولوجي</u> يسميه التقليد البعد الروحي (Anagogical sense) وهو العبور إلى المطلق والأزلي.

إن نظرة ديناميكية لحياة شعب الله في التاريخ كما يصورها الكتاب، تقودنا إلى رؤية جديدة لطبيعة الإيمان في التعليم المسيحي فيقول: المسيحية ليست ديانة كتاب "**الإيمان المسيحي ليس دين كتاب، بل دين كلمة الله، ليس دين كلمة مكتوبة خرساء ، بل دين كلمة متجسد وحي، لكن لا يبقى الكتاب المقدس حرفًا ميتًا، لابدّ للمسيح كلمة الله الحي الازلية، أن يفتح بالروح القدس أذهاننا، على فهم الكتب**" (١٠٨).

في مركز وقلب الإيمان يقف يسوع المسيح الكلمة الحي يفسر الكتب بنفسه، بوضوح ليس له مثيل، طالما نصغي ونسمع كلامه ونقترب منه ونشاركه حياته، لأنه هو المؤلف الحقيقي وصاحب الكتاب المقدس بامتياز. عندما نفهم الإيمان من خلال الزمن واللازمن، من خلال جماعة الكنيسة، أعضاء جسد الربّ الحي القائم، لأنه هو المعيار لتفسير الكتب في كل الأزمنة وإلى الأبد. خارج هذه الرؤية والعلاقة العميقة، يصبح الكتاب مجرد معلومات ومجموعة كتب أدبية وجودية متنوعة، ليس لها علاقة بحياتنا اليوم ولا هي علامات حياة وطريق للحاضر والمستقبل.

يوجد بين التقليد والأسفار المقدسة علاقة قوية لا تنفصل عن بعضها، كما يصفها اللاهوتي الألماني **جون موهلر** في كتابه **(وحدة الكنيسة)**، وفيه يعجز اللسان عن التحدث عن قيمته وجمال وصفه الرائع عن الكنيسة، اتمنى أن تقرأوه يومًا ما. كتاب التعليم المسيحي



يتطلع إلى بناء هذه العلاقة القوية وهي مسؤولية الكنيسة في تفسيرها الصحيح للكتاب المقدس، كما يشهد بذلك الرسول بطرس في (٢بط ١ :٢٠) **فيقول: "اعلموا قبل كل شيء، أن لا أحد يقدر أن يفسر من عنده، أية نبؤة في الكتب المقدسة لأن ما من نبؤة على الإطلاق، جاءت بإرادة إنسان، ولكن الروح القدس، دفع بعض الناس إلى أن يتكلموا بكلام من عند الله"**. من هذه الرؤية يقدر التعليم المسيحي أن يقول هذا الكلام لتفسير النصوص بأساليب وطرق حديثة ومعاصرة لكل زمان ومكان.

المبدأ الاساسي لتفسير الكنيسة هو الحرص على وحدة وأصالة هدف الكتاب المقدس، بأسلوب مناسب ومعاصر، وهي تدرك أن صيغة التفسيرين التاريخي والمعاصر متطابقة وهما بنفس القيمة والمعنى، وهناك علاقة جوهرية بين التقليد ونصوص الأسفار التي شرحها ووضحها المفسرين الكبار المعروفين من كل الطوائف المسيحية، لذا فإن أي تفسير مستقل وخارج عن شركة الكنيسة بعيد عن الواقع والمعنى الكتابي، ولا يعدو غير تفسير حرفي يفترض أشياء لا تنتمي إلى قصد ونية الكتاب المقدس، ومصيرها الزوال.

كان هناك أكثر من سبب لمراجعة الأحكام السريعة وإعادة النظر في التفسيرات القديمة والتي شرحت بشكل حرفي وتاريخي محض، ولكي نبتهج بفرح عند قراءة الأسفار لأننا نفهم ما تحمله لنا من معاني عظيمة من وراء السطور، وتصبح الكلمة والبشرى السارة زوادة طريق تنمي وتنعش إيمان حياتنا المسيحية.

"كالوديعة العظيمة الثمن والمحفوظة في إناء ثمين، يتجدد ويجدد الإناء الذي يحتويه" (١٧٥).

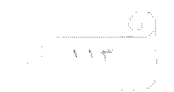
٤/٩ عقيدة الأسرار في كتاب التعليم المسيحي

لنتحدث الآن عن الجزئين الثاني والثالث من كتاب التعليم المسيحي. القسم الثاني مكرّس للأسرار المقدسة، وله خصوصية مميزة لأنه مبني على أساس نتائج وتوصيات المجمع الفاتيكاني، نتيجة عمل وفداء المسيح في فصحه وحياته الأرضية، من أجل خلاصنا، وهي

مركز حياته، وكذلك تعني الاحتفال بالسر الالهي، كما لو أنه يحدث اليوم في عصرنا الحالي، والأسرار رتبت بأسلوب مناسب، ليتورجي وطقسي.

قام كتاب التعليم المسيحي بخطوات جريئة ومهمة حيال تعليم الأسرار في المدرسة الكلاسيكية الحديثة، فلاهوت القرون الوسطى يفصل بين الدراسات اللاهوتية للأسرار المقدسة عن أقسام العبادة الالهية (الطقس)، ويتعامل مع كل قسم على حدة، ويفصلها بعناوين محددة مثل: العلامات والرموز، التأثير، الكاهن، المتلقي، حيث الرموز والعلامات فقط اعترفوا بعلاقتها بالليتورجيا، وفسروها على أساس فلسفي **(الشكل والمادة)**، ولم تعتبر كشكل طقسي للتكوين الحي للعبادة الإلهية. لهذا ابتعد اللاهوت وكذلك طقس العبادة أكثر فأكثر، فاللاهوت العقائدي لم يفسر على أساس العبادة نفسها، بل على أساس محتوى اللاهوت التجريدي، لذلك صارت الليتورجيا تبدو مثل مجموعة مراسيم احتفالية مرتبة تلبس شكل ومادة جوهرية وبالتالي هي قابلة للاستبدال.

أصبحت الليتورجيا دراسة المعايير السائدة في العبادة الالهية، وبالتالي تقترب إلى كونها شكلاً من أشكال الفلسفة القضائية. قررت الحركات الليتورجية في عام ١٩٢٠ أن تتجاوز هذا الأنفصال الخطير بين اللاهوت والطقس، فجاهدت وعالجته وفهمت جوهر السر من شكل الطقس الالهي نفسه، لأن الليتورجيا ليست مجموعة مراسيم احتفالية مجردة تكوّنت بالصدفة، بل تطور طبيعي للعبادة وللتعبير عن الأسرار بشكل احتفال طقسي مناسب. دستور الليتورجيا المقدسة في الفاتيكاني الثاني وضع لنا مؤلفًا رائعًا، خلاصة وتركيب موجز، هي مهمة مخصصة إلى اللاهوت والتعليم المسيحي كذلك، هي مهمة فهم الأسرار وطقس الكنسية الاحتفالي، برؤية أعمق ومعنى جديد يبنى على أساس هذه العلاقة والشركة معًا. لكن لسوء الحظ لم ينجز الكثير في هذا المجال، والسبب أن الدراسات الليتورجية تريد فصل نفسها عن العقائد اللاهوتية وتضع نفسها فوقها، كنوع من التكنيك في الطقس الاحتفالي. بالمقابل، لم يقتنع اللاهوت العقائدي بعد بأخذ الابعاد الليتورجية بنظر الاعتبار بالاضافة إلى أن الحماس لتغيير الطقس كان في غير محله، لأن الطقس ليس مجرد مراسيم يمكن تغييرها بأفكار جديدة أخرى بشكل كيفي واعتباطي.



وجدنا في كتاب التعليم المسيحي هذه الكلمات الذهبية التي تنبع من جوهر الإيمان المسيحي وفهمه الأصيل لليتورجيا، الكلمة المتجذرة بالحقيقة، فيقول: "**لا يجوز لأي خادم أو جماعة، أن يغير أو يحور على هواهما، طريقة الاحتفال بالاسرار، وحتى السلطة العليا بالكنيسة، لا يجوز أن تغير الليتورجيا حسب رغبتها، بل في طاعة الإيمان وفي شعور من الورع، والاحترام لليتورجيا**" (١١٢٥).

الطروحات الليتورجية تأخذنا الآن إلى القسم الثاني من الأسرار، والتعليم المسيحي قام بخطوة كبيرة إلى الامام، وصار لديه رصيد كبير من الإشادة والثناء من كبار الاباء الليتورجيين، على سبيل المثال اللاهوتي الالماني من تيرير **بلشاصر فشر**.

أشير الآن إلى بعض الجوانب من عقيدة الأسرار في التعليم المسيحي بشكل عام. شرح الأسرار على انفراد وعلى أساس طبيعتها الليتورجية والاحتفالية، والصعوبات التي تواجه تعدد الطقوس ومضمون الليتورجيا، لأنه لا يوجد شكل طقسي موحد للكنيسة الجامعة، بل يتنوع الطقس الليتورجي حسب الجغرافيا والمكان، وهذه ليست مشكلة للتعليم المخصص للكنيسة الغربية اللاتينية وحدها والتابعة لها، بل بالنسبة للتعليم المخصص لكنيسة جامعة وشاملة، تتألف من طقوس متنوعة وتسعى أن تكون كاثوليكية (كما هو الحال معنا)، عندها لا يمكن التركيز على امتياز طقس معين حصريًا. ما العمل اذن! ما هو الحل؟

اقتبس هنا أقدم النصوص للاحتفال الليتورجي للقربان المقدس الذي كتبه **القديس جاستن الشهيد** سنة ١٥٥م، في دفاعه عن المسيحية ويخاطب به الامبراطور الوثني، انطونيوس بيوس، ليشرح له ما يقوم به المسيحيون في اليوم المسمّى يوم الشمس، وضمه كتاب التعليم المسيحي بالفقرة ١٣٤٥. هذا النص هو الهيكل الاساسي الذي يجمع كل أشكال الطقوس الليتورجية، حتى يومنا هذا **(قداس كل العصور)**. بالإصغاء إلى مضمون النص نفهم ونكتشف الإطار العام لقلب السرّ المقدس، والذي يعود إلى زمن الرسل ومؤسسه الأصلي الربّ يسوع المسيح نفسه:

"منذ القرن الثاني، نملك شهادة القديس يوستينوس الشهيد في وصف الخطوط الكبرى للاحتفال الافخارستي. وقد ظلّت هي هي حتّى أيامنا هذه في جميع العائلات الليتورجية الكبرى. وهذا ما كتبه القديس يوستينوس، حوالي سنة ١٥٥، ليشرح للامبراطور الوثني انطونيوس الورع (١٣٨-١٦١) ما يقوم به المسيحيون: "في اليوم المسمّى يوم الشمس، يجتمع كل الساكنين في المدينة أو في الريف، في مكان واحد. في هذا الاجتماع تُتلى مذكرات الرسل وكتابات الأنبياء، بقدر ما يتسع الوقت لذلك. عندما ينتهي القارئ من قراءته يتناول المتقدّم للكلام ليحثّ الناس ويشجّعهم على التشبّه بهذه الحسنات. ثم ننهض كلنا معًا ونرفع صلوات لأجلنا (...) ولأجل جميع الآخرين، أينما كانوا، لنكون في نظر الله أبرارًا بسيرتنا وأعمالنا، وأوفياء للوصايا، فننال بذلك الخلاص الابدي. في نهاية الصلوات، نقبّل بعضنا بعضًا. ثم نقدّم لرئيس الإخوّة خبزًا وكأسًا من مزيج الخمر والماء. فيأخذهما ويرفع الحمد والتمجيد إلى الآب خالق المسكونة، باسم ابنه والروح القدس، ويرفع الشكر طويلاً لأننا حُسبنا أهلاً لهذه المواهب. في نهاية هذه الصلوات وعبارات الشكر، يهتف الشعب الحاضر كلّه قائلاً: آمين. في نهاية صلاة الشكر، وبعد هتاف الشعب، يتقدّم الذين نسمّيهم شمامسة ويوزّعون على جميع الحاضرين خبزًا وخمرًا وماء "افخارستية" ويحملون منها للغائبين" (ت.ك.ك. ١٣٤٥).

إذًا، ما دام الرب نفسه هو مؤسس السر المقدس لذلك فقد وجدنا الحل هنا، هو يؤكد المبدأ الجوهري الشامل للتعليم المسيحي الذي يأخذ بنظر الاعتبار كل مساحة وغنى تقليد الآباء العظيم، والذي لا يمكن حصره بكنائس الغرب أو الشرق أو بيزنطية، هو للكل ويذكرنا بكل ما سبق وما يتم الآن وفي المجد الآتي. بالإضافة إلى كنوز هذا الكتاب، هناك مقاطع كثيرة وشهادات إيمان من كل العصور لآباء الكنيسة القديسين، خبرات باطنية وروحية معاشة لرجال ونساء من المشرق والمغرب، نسمع صوت القديسات يصدح بقوة يدلنا على جمال وروعة الحقيقة، ابتداءً من كاترين السيانية وتريزا الافيلية، ترازيا الطفل يسوع، جان دارك، جوليانا المتصوفة، روزا من ليما، والقائمة طويلة من القديسات في رحلة الإيمان لتاريخ الكنيسة.

هذا الثراء العظيم، الإرث الذي جلبه الآباء، جدير بالقراءة اليوم ويجعل كتاب التعليم المسيحي غني بما لديه من خبرات للتأمل الفردي وكذلك لخدمة جماعة المؤمنين والأنجلة الجديدة. هناك أيضًا عنصر آخر مهم في الكتاب وهو البعد الروحي في اللاهوت الليتورجي، هيكله الأساسي هو الروح القدس. على القارئ أن يطلع عليه ويتعرف على بعده الباطني لكي يعطي ثماره في المؤمن ليشهد للمسيح، كما في الفقرة ٦٨٣: **"ما من أحد يستطيع أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس"**، وأيضًا في الفقرة ٧٤٧: **"الروح القدس الذي يفيضه المسيح الرأس على اعضائه يبني الكنيسة ويقدسها، لأنها سر الثالوث الأقدس"**.

الكتاب يبين مدى تشابك الكرستولوجيا مع الروحانيات، يظهر من خلال التسمية المشيح (messiah)، وتعني الممسوح في التقليد اليهودي، أي أن المسحة الحية (الروح القدس) اخترقته ونفذت إلى باطنه العميق. هناك مقطع جميل في الكتاب يصف الروح القدس كالحمامة فيقول: **"الحمامة في نهاية الطوفان عادت بغصن الزيتون، دلالة على أن الأرض صارت قابلة للسكنى، الحمامة تنزل على رأس المسيح في المعمودية"** (٧٠١) وكذلك **"الماء رمز للروح القدس"** (٦٩٤).

اهتم التعليم المسيحي كثيرًا بالعلامات والرموز والصور، وهذه المسألة ليست من المبدأ التجريدي ولكنها مسألة فكرية، تضع أمام أعيننا صورة للكون الذي يكشف سرّ الله والوجود ويوثق علاقة الانسان بعالم الاديان، فالصور والرموز تنقلنا بسهولة إلى عالم اللاهوت ومملكة الليتورجيا، والطقس يعتمد أصلاً على الرموز في التعبير عن خلاصنا الإلهي. الروح القدس يرافق التعليم المسيحي من خلال الكنيسة لأنها هيكله، سر الله في العالم، **"الكنيسة منظورة وروحانية معًا، جماعية ذات سلطان، وجسد المسيح السري، واحدة بعنصرين بشري والهي وهذا سرها، الذي لا يتقبله إلا الإيمان"** (٧٩٧)، وأيضًا **"هكذا تبدو الكنيسة الجامعة كشعب يستمد وحدته من وحدة الاب والابن والروح القدس"** (٨١٠)، وفي القسم الثاني يبرز شرح عقيدة الثالوث فيقول **"الروح القدس في الليتورجيا هو الذي يثقف إيمان شعب الله، وهو الذي يصنع روائع الله وأعني بها، أسرار العهد الجديد، أن رغبة الروح**

وعمله في قلب الكنيسة، هما أن نحيا حياة المسيح الناهض، وعندما يلقي فينا جواب الايمان الذي هو باعثه، يتم تعاون حقيقي، به تصبح الليتورجيا عملاً مشتركًا بين الروح القدس والكنيسة" (١٠٩١)، ويضيف أيضًا: **"رسالة الروح في الكنيسة، أن يهيئ للقاء المسيح ويعلن ذكره إلى الجماعة المؤمنة، وأن يجعل من عمل المسيح الخلاصي، حدثًا آنيًا وحاليًا، بقدرته على التحول وأن يثمر عطية الشركة في الكنيسة"** (١١١٢).

يساعدنا الروح القدس في فهم الأسفار المقدسة بشكل صحيح، فالكنيسة تقودنا خلال رحلة السنة الطقسية لنتعرف على تاريخ الخلاص كله ونختبر اليوم بروحانية الثالوث. كل الأسفار، في العهدين القديم والجديد، تأتي من روح واحد، الجديد مختبئ في القديم، وفي الجديد نكتشف القديم. هناك علاقة مشتركة بين اليهودية والمسيحية في مجال الليتورجيا يوضحها التعليم المسيحي **"الليتورجيا اليهودية والمسيحية: وقفنا على أفضل إيمان للشعب اليهودي وحياته الدينية، كما يعلنها ويمارسها حتى اليوم، قد يساعدنا على فهم بعض ملامح الليتورجيا المسيحية، ففي نظر اليهود والمسيحيين، وكذلك الكتاب المقدس، هو جزء جوهري في ليتورجيا اعلان كلمة الله، وللامتثال لهذه الكلمة، لتأدية التسبيح والاستشفاع، للاحياء والاموات، واللجوء إلى رحمة الله، ليتورجيا الكلمة في هيكلتها الذاتية، تمتد جذورها إلى الصلاة اليهودية، صلاة الساعات وغيرها من النصوص والصيغ الطقسية، لها ما يوازيها في الصلاة اليهودية، وكذلك التعابير التي نعتمدها، أجل ما لدينا من صلوات ومنها صلاة الأبانا، الصلوات الافخارستية هي أيضًا تستوحي نماذج من التقليد اليهودي، العلاقة والفرق بينهما نلاحظه في أعياد السنة الطقسية الكبرى، عيد الفصح مثلاً، اليهود والمسيحيين يحتفلون بفصح التاريخ المشدود إلى المستقبل عند اليهود، والفصح الناجز بموت المسيح وقيامته عند المسيحيين مع الترقب الدائم لانقضاءه الحاسم))** (١٠٩٦).

فكرة (الكنيسة وإسرائيل) تمتد وتمر بكل العمل ولا يمكن الحكم عليها من مقطع واحد، التركيز على الروحانيات يوحد التعليم المسيحي، وكنائس الشرق، هذا ما تريد أن تقوله بشكل غير مباشر.

ختامًا، التعليم المسيحي اهتم أيضًا بموضوع (الثقافة والعقيدة الدينية)، ونستطيع أن نتحدث على أهمية الأقلمة عندما يكون البعد الثقافي جزءًا من أشكال العبادة والطقس الديني، بالإضافة إلى أن التلاقي بين الثقافات الأخرى هو أكثر من مجرد ترتيب ظاهري مصطنع خصوصًا عندما ينفتح البعد الباطني على ثقافات وطقوس عبادة الآخرين وتشترك مع بعضها لتتعرف على الليتورجيا المسيحية. من هذه النقطة، التعليم المسيحي ينحو نحو البعد الكوني الشامل، لليتورجيا التي تختار الرموز والعلامات وتفسر جوهرها ومعناها العميق، فيقول: **"الديانات البشرية الكبرى، تشهد بطريقة مؤثرة، غالبًا على هذا الطابع الكوني والرمزي، الكامن في الطقوس الدينية، أما ليتورجيا الكنائس، فهي تفترض وتنظم، تقدس عناصر الخليقة والثقافة البشرية، وتضفي عليها من الكرامة، ما هو من آيات النعمة، والخليقة الجديدة في يسوع المسيح"** (١١٤٩).

مع الأسف أخذ الإصلاح الليتورجي في بعض الكنائس منحى مغايرًا، طريق فكري أحادي، أصبح مجرد شكل من التعليمات والارشادات الدينية المجردة روحيًا، لذا كانت فقيرة في محتواها ثقافيًا إلى درجةٍ خطيرة، اندمجت في الأنبهار بعالم الصوت والصورة والموسيقى، وفي التخطيط لإعطاء مساحة للاحتفال الليتورجي نفسه. التفسير الأحادي المنحاز إلى حاجات ورغبات جماعة معينة، والتغيير بالأشكال الخاطئة، أدى إلى ضعف تاثير الليتورجيا العظيمة وأصبحت قصيرة النفس وبعيدة وفقيرة إلى درجة خطيرة.

كتاب التعليم المسيحي يقدم العلاج الضروري والناجح الذي ينتظره الجيل الكاثوليكي الجديد.

"الليتورجيا مولدة الثقافات ومهذبتها" (١٢٠٧)

٥/٩ الأخلاق في التعليم المسيحي

القسم الثالث من الكتاب عنوانه **الحياة مع المسيح**، ويطرح موضوع طبيعة الأخلاق المسيحية. خلال فترة تأليف كتاب التعليم المسيحي، كان هذا الموضوع من المسائل الصعبة

والتحديات المعقدة بلا شك، بسبب عدم الاتفاق على المبادئ الأساسية للأخلاق المسيحية، ومن جهة أخرى هناك صعوبات ومشاكل في مجال الأخلاق: اجتماعية وسياسية وبيولوجية، وهي في مرحلة تطور وتغير مستمر، وتتصدى مع الحقائق الجديدة. كذلك في المجال الانثروبولوجي (الانسانيات)، صراعات العائلة والزواج، الأخلاق الجنسية، وكل القضايا الأخرى تسير في تغير سريع ومعركة مستمرة على قدم وساق.

التعليم المسيحي لا يطالب بتقديم صياغة بأفضل ما يمكن من نظام لاهوت أخلاقي، بل يريد أن يوضح العلاقة الجوهرية بين الانثروبولوجي واللاهوت، والتي هي أساس النشاط الأخلاقي للإنسان. لأن حفظ كرامة الانسان هو ما يكوّن عظمته وأساس التزاماته وواجباته. رغبة الانسان في العيش بفرح وسعادة تنبع من داخله، أعماق ذاته، وتقوده إلى الفعل الأخلاقي. لا ننكر أن الإنسان البدائي يتطلع بالفطرة إلى الفرح والنجاح والسعادة في حياة كاملة. اعتمد التعليم المسيحي على الأخلاق التي وضعها آباء الكنيسة وخصوصًا **القديس اوغسطينوس**، فالعقيدة الاخلاقية هي التي توصلنا إلى حياة مزدهرة ومثمرة، وهي ببساطة قواعد لاتقان فن لعبة السعادة إذا جاز التعبير!

يجمع التعليم المسيحي الأفكار الفطرية للإنسان، مع تطويبات يسوع على الجبل، والتي تفصل بين مفهوم السعادة الحقيقية وبين التفاهة والسطحية والوهم، كذلك يوضع المعنى الأصيل لها وأثرها في ارتباط السعادة بالخير العام للجميع، الخير الكبير الذي يأتي من قلب الله نفسه.

المضمون الجوهري للفعل الاخلاقي هو: الحرية، الهدف، النية والسلوك، العاطفة والمشاعر، الضمير، الفضائل، الخطيئة وتعني سقوط الفضائل والطابع الاجتماعي كإنسان مخلوق على صورة الله، ثم أخيرًا، العلاقة بين القانون والنعمة.

اللاهوت الأخلاقي المسيحي، ليس مجموعة قوانين وفضائل أخلاقية، بل يذهب أعمق وأكثر من ذلك. هي الأخلاق في حوار مستمر، لأن النشاط الإنساني ينكشف من خلال لقائه مع الله، ويعني أنه ليس هناك بعد الآن فعل إنساني شخصي مستقل بذاته، ولكنه رد



واستجابة لمحبة الله للإنسان، شركة في ديناميكية محبة الله نفسه، الديناميكية التي تحرر الإنسان وتحقق ملء كرامته فرحه وسعادته، لأن السلوك الأخلاقي ليس نتاج براعة واختراع شخص ما من نفسه، ولا هي شيء مدعوم من الخارج، الفعل الاخلاقي الأصيل هو كله هبة مجانية من الله، من هنا تكمن مسؤليتنا نحن المسيحيين أن نكشف هذه الهدية المجانية للاخرين.

هدية مجانية: هذه الهدية لا تجعلنا عاجزين أو مقيدين بل العكس تمامًا، محبة الله تعيد الإنسان إلى ذاته الاصلية التي سرقت منه في غفلة ولحظة ضعف! لذلك يقول يسوع: اسهروا وصلوا...

الخطوة الضرورية والمهمة التي قام بها كتاب التعليم المسيحي هي: وضع عقيدة التبرير في قلب الفضائل الأخلاقية، وبهذه الطريقة تجمع وتتشابك الحرية والنعمة معًا، وتصبح واضحة ومفهومة، ويدرك القارئ المنتبه بأن الوجود من آخر، هو وجود حقيقي في الذات نفسها، وكذلك وجود من أجل الآخرين.

في مناظرة نقاش للتوافق بين الكاثوليك والبروتستانت، حول عقيدة التبرير، يطرح السؤال نفسه مرارًا وتكرارًا: كيف يمكن لعقيدة التبرير أن تصبح مقبولة ومفهومة ومهمة لحياة الإنسان المعاصر اليوم؟ ما يطرحه الكتاب في إطار السؤال الانثروبولوجي عن السلوك الإنساني الصحيح، أخذ خطوات كبيرة إلى الأمام، وأصبح ممكنًا استيعاب وفهم الموضوع بعمق وبشكل أفضل.

من أجل إظهار الروح التي بحث عنها الكتاب حول عقيدة التبرير، اقتبس ثلاثة مقاطع من كتاب التعليم المسيحي، اختارها من خزائن التقليد العظيم لآباء الكنيسة والقديسين:

الاقتباس الأول هو رأي القديس اوغسطينوس: "**التبرير هو العمل الأسمى الذي تقوم به محبة الله المعتلنة في المسيح يسوع، والتي يهبها الروح القدس، وأن تبرير المنافق عمل أعظم من خلق السماوات والارض، لأن السماء والارض تزولان بينما المختارين وتبريرهم**

يبقيان، بل أن تبرير الخطأة يفوق خلق الملائكة في البر لكونه يؤكد رحمة الله" (روما ٢٢:٧ وافسس٣:١٦) (١٩٩٤).

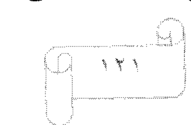
<u>الاقتباس الثاني</u> لاوغسطينوس أيضًا فيقول: **"إذا كنت في نهاية أعمالك الحسنة جدًا قد استرحت في اليوم السابع، فذلك لكي تسبق وتقول لنا بصوت كتابك إننا في نهاية أعمالنا الحسنة جدًا، إذ أنك أنت من أعطانا إياها، ونحن أيضًا سنستريح فيك في سبت الحياة الأبدية"** (تك ١:٣١) (٢٠٠٢).

<u>الاقتباس الثالث</u> هو للقديسة ترازيا الطفل يسوع في وصفها الرائع والجميل فتقول: **"عندما ينتهي زمن منفاي على الأرض، رجائي أن اذهب وأنعم بك في الوطن، ولكن لا أريد أن أكدس الاستحقاقات للسماء، أريد أن أعمل لأجل محبتك وحده، في مساء هذه الحياة سأظهر أمامك صفر اليدين، لأني لا أسالك يا رب أن تحسب أعمالي، فكل بر فينا لا يخلو من عيب في عينيك، أريد أن أتلبس برك الخاص وأن أتقبل من حبك امتلاكك إلى الأبد"** (٢٠١١).

موضوع الغفران مساهمة مسكونية مهمة وإضافة ضرورية يقدمها كتاب التعليم المسيحي للمؤمنين، ولكن لا يمكن أن نكتشف كل البعد المسكوني بكفاية من الاقتباسات فقط أو من تصفح عناوين المواضيع، بل نحتاج إلى قراءة الكتاب كله بتأني وعمق من الغلاف إلى الغلاف، حينها سنرى كل ما هو عميق ونافع وجديد، هو يجمع ويوحد الجميع بقوة نور الروح القدس.

"هناك ضرورة لإعادة اكتشاف طريق الإيمان، كي يبرز بوضوح متزايد الفرح والحماس المتجددين للقاء المسيح يسوع"، رسالة باب الإيمان ٢٠١٢، البابا بندكتس السادس عشر.

الوصايا العشرة (Decalogue): اعتمد كتاب التعليم المسيحي الوصايا العشر كأساس وجوهر لمضمون الفضائل الأخلاقية، ترجمها بأمانة للحفاظ على أصلها ومصدرها الانجيلي، باعتبارها جزءً من الحوار مع الله وتاريخ الخلاص على خطى العهد.



أكد اوريجانوس أن أولى الوصايا من الكلمات العشر هي (الحرية)، الحرية التي تتحقق من خلال السير في طريق الله، **"أنا الرب إلهك الذي أخرجك من مصر دار العبودية، لا يكن لك آلهة سواي"** (خروج ٢٠: ٢، تثنية ٥:٦)، **"تتخذ الوصايا كامل معناها في صميم العهد، فبحسب الكتاب، يتخذ تصرف الإنسان الأخلاقي كامل معناه في العهد وبه، والأول بين كلمات الله العشرة تذكر بحب الله الاول لشعبه: أنا الرب الذي..."** (٢٠٦١). هكذا تظهر الحياة الأخلاقية استجابة لمبادرة حب الله لنا، فيوضح الكتاب في الفقرة (٢٠٦٢): **"الوصايا بالمعنى الدقيق تأتي بالمرتبة الثانية، وتعبر عن مقتضيات انتمائنا الذي أقامه العهد إلى الله، والوجود الأخلاقي هو الجواب عن مبادرة الرب المحبّة، إنها حمد واجلال لله وعبادة وشكر، إنها مساهمة في ما لله من تدبير في التاريخ"**.

أيريانوس في كتاباته أيضًا يشرح الوصايا ويقول إنها دليل الصداقة مع الربّ والانسجام مع الجار والقريب، **"يثبت أيضًا العهد والحوار بين الله والإنسان، كون جميع الوصايا المعلنة بصيغة المتكلم (أنا الربّ)، موجهة إلى شخص آخر (أنت)، في جميع وصايا الله يعين ضمير مفرد من توجه إليه، فالله يعلم بإرادته، في آن واحد، جميع الشعب وكل واحد خصوصًا: لقد فرض الرب المحبة تجاه الله، وعلم العدل تجاه القريب، حتى لا يكون الإنسان ظالمًا، أو غير أهل لله، هكذا كان الله بالوصايا العشرة يهيء الإنسان، ليصير صديقه، وليكون مع القريب قلب واحد، كلمات الوصايا باقية كذلك عندنا "نحن المسيحيون" وهي لم تبطل، بل انها كبرت ونمت من جراء مجيء الرب في الجسد"** (٢٠٦٣).

رؤية بهذا الشكل، السير في خطى العهد مع الرب وتاريخ الخلاص، تبين قدرة الأخلاق المسيحية على الرؤية العميقة، ولا تزال منطقية وواقعية، والفكر قادر على استيعابها. ايريناوس يشهد بالتالي **"وكان الله منذ البدء قد غرس في قلب البشر الشريعة الطبيعية، واكتفى في بادىء الأمر بتذكيرهم بها، فكانت الوصايا العشرة التي إن لم يعمل بها الإنسان لا ينال الخلاص، ولم يطلب منهم شيء آخر"** (٢٠٧٠).

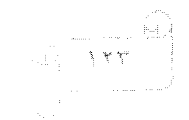
هذا هو العنصر المهم في أخلاقيات التنشئة المسيحية، فهي تخاطب نور العقل وقدرته على البصيرة والاستيعاب، الأخلاق تتطور على ضوء الكلمات العشرة، لتترجم في واقع معاش، وتدعم بالحجج والبراهين من خلال ملكة العقل التي وهبها الله لنا، ليذكرنا بكلماته المنقوشة في أعماق روحنا جميعًا، دعوة الله لنا، هي أن **يظهر محبة الله بسلوكنا، "كل إنسان هو صورة الله، لكن المسيحي هو ابن وروح الله حل فيه".**

الوصايا العشرة هي وحدة عضوية كاملة، ومخالفة أي منها تعني مخالفة الكل، لأنها تحوي في مضمونها واجبات وتعبير عن الشريعة الطبيعية ونحن نعرفها بالوحي والعقل البشري.

ربما يتعجب البعض عندما يجد أن الكرستولوجيا (لاهوت المسيح) تلعب دورًا صغيرًا نسبيًا في هيكل البنية الأخلاقية للتعليم المسيحي! في كتب اللاهوت الأخلاقي ما قبل المجامع كان التعريف السائد الغالب يسير على طول الخط، حسب فكر القانون الطبيعي "هي مجموعة الحقوق التي يكتسبها الفرد بالفطرة".

حركات التجديد في أوربا، وفي فترات مختلفة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، طالبت باعتماد مفهوم لاهوتي حقيقي وأصيل لمفهوم الأخلاق، واقترحت التقليد المسيحي كمبدأ اساسي وجوهري ليشمل بالمحبة كل نقطة ومجال في النشاطات الأخلاقية.

دستور مجمع الكنيسة في العالم المعاصر "Gaudium et spes" **(فرح ورجاء)** يدعم هذا التطور بعيدًا عن فكر القانون الطبيعي المجرّد، وأعطى الكرستولوجيا مساحة واسعة وخصوصًا للسر الفصحي باعتماده كجوهر للأخلاق المسيحية. كان من الضروري أن تتطور الأخلاق الكتابية الحقيقية كي تتوسع وتتعمق أخيرًا، لأن الناس ابتعدت من المجلس، على الرغم من أن الدستور المذكور آنفًا لا يزال في مناقشاته، يستعمل الأشكال العقلانية إلى حدٍ كبير في معالجة القضايا والأفكار الفردية، وهو غير مستعد باعتماد الأخلاق الموحاة حصريًا، والسبب هو مسألة الحوار مع العالم غير المسيحي المعاصر، حول المبادئ الأساسية والقيم الجوهرية التي تهم الصالح العام وكل إنسان.



بالرغم من ذلك إذا أردنا أن نصف التوجه الأساسي للمجلس في هذه النقلة النوعية نحو جوهر الأخلاق الانجيلية، التي فسرت على ضوء الرؤية الكرستولوجية المركزية، ثم بعد ذلك في فترة بعد المجمع، نجد تغييرًا جذريًا سريعًا: قالوا إن الإنجيل لا يستطيع التواصل مع أية قضايا أخلاقية قطعًا، لأن المضمون والمحتوى الأخلاقي يجب أن ينقل بطريقة عقلانية وأسلوب منطقي بحت. طبقا لهذا الافتراض، يصبح الإنجيل محفزًا فقط، وأهميته ليست في محتواه الأخلاقي، وبالنتيجة يختفي دور الإنجيل والكرستولوجيا معه في المساهمة في صياغة محتوى ومضمون اللاهوت الأدبي والأخلاقي إلى درجة أكبر مما كان عليه الحال سابقًا.

الفرق ما بين الفترة قبل وبعد المجمع، يتمثل في الحقيقة أن الأكاديميين الآن استغنوا عن فكرة القانون الطبيعي والأخلاق الطبيعية، والتي اعتمدت بشدة ودومًا في أن الايمان بالخليقة هو الاساس الجوهري للاهوت الأخلاقي. بدلاً من ذلك هناك رغبة وميل لاعتماد تطبيق الرياضيات، التفاضل والتكامل لحساب القضايا الأخلاقية، والتي تعتمد في النهاية على تأثير الفعل كأساس ومعيار لها، وبالتالي يتوسع المبدأ القائم على وزن وتقييم الاشياء ضد بعضها البعض الاخر، في كل عالم النشاط الأخلاقي. (بمعنى أن الصواب والخطأ الأخلاقي لعمل ما يُقاس بمقدار الفرح أو الألم الذي ينتجه).

في خضم هذا الموقف الصعب، صدر **(روعة الحقيقة)** وأعطانا توضيحًا كافيًا بشأن العناصر الجوهرية الفريدة للأخلاق المسيحية، والتي لا غنى عنها، وكذلك حول العلاقة الصحيحة والمتكاملة بين الإيمان والعقل، في مجال إعداد وتطوير المعايير الأخلاقية.

مهّد التعليم المسيحي الطريق لإتخاذ قرارات كهذه بدون أية أدعاء لتكون منهجية. المبادىء الكرستولوجية حاضرة في الفرح الالهي، تطويبات يسوع على الجبل، في الأسلوب والنهج الانثروبولوجي، في فكرة الشريعة والقانون والنعمة، وبالتحديد في الكلمات العشرة، كذلك في فكرة العهد مع الله، التي تشمل الجانب المحسوس الأخير للعهد في شخص **الكلمة** الذي خلق الإنسان، وفي التفسير الجديد للكلمات العشرة. علمًا أن التعليم المسيحي لا ينوي وضع نظام شامل خارج عن هذه المبادئ.

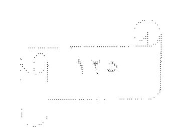
احفظ الوصايا: في البحث عن وعي أخلاقي وكرستولوجي، يجب أن نتذكر دائمًا أن المسيح هو الكلمة الذي خلق الإنسان، لذلك هو يريد أن يوقظ فكرنا وننتبه إليه شخصيًا. الغرض الحقيقي لعيش الوصايا هو تذكر وإدراك أعمق في فكرنا بأن اللقاء مع المسيح لا يبطل ولا يلغي العقل بتاتًا، بل يوصلنا إلى النضج الكامل، ملء قامة المسيح، كما أجاب يسوع الشاب الغني الذي سأله: ماذا أفعل لأرث الحياة الابدية؟ الجواب هو: **احفظ الوصايا!** الأخلاق التي تصغي إلى الوحي بانتباه، تريد أن تكون واقعية عملية، حقيقية ومنطقية، وتتجاوب مع لقاء الرب الحاضر معنا في العهد الجديد، ويعني: الولادة الجديدة، هذا هو العهد الجديد الذي نحياه، عيش الملكوت والبشرى السارة.

روعة الحقيقة: من يبحث عن مجموعة روايات جديدة، أو نظام لاهوتي مثير للدهشة، أو فرضيات مفاجئة في كتاب التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية، لن يجدها هنا، وسيصاب بخيبة أمل، لأن هذا ليس مجال بحثه واهتمامه. فالكتاب يقدم رؤية حية، خبرة روحية حقيقية، مستمدة من نتائج الفاتيكاني الثاني، ومن الأسفار المقدسة، ومن كل غنى الإرث العظيم والتقليد الكتابي المقدس، في أشكاله المتنوعة لرحلة الايمان الكاثوليكي كله، رحلة الجمال المشرق من نور روعة الحقيقة.

التوقيت الزمني المناسب لصياغة رؤية للتعليم المسيحي هو زمن الحقيقة، التي تأملنا وفكرنا فيها، وطورنا أساليبنا لنكتشف طرقًا جديدة للتنشئة لتصبح مفهومة معاصرة وحديثة، لكي تضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح للقاء الرب يسوع المسيح. هذا التوقيت صمد في الماضي وسيصمد اليوم وغدًا، لأنه باقٍ رغم كل المنتقدين في كل زمان ومكان. آمين.

الكاردينال جوزيف راتسنجر

روما ٢٠٠٣



الفهرست

